

**الفصل السابع**  
**الدويلات المستقلة**  
**الدولة الغزنوية ودورها فى نشر**  
**الإسلام فيها**

\* الدولة الغورية.

\* دولة سلاطين المماليك.

\* الدولة الخلجية.

\* دولة بنى تغلق.

obeikandi.com

## الغزنويون والفرزيون في بلاد الهند

### ١ - الغزنويون:

٢ - اعتمد السامونيون على الأتراك في أمور دولتهم، فكان قوام جيشهم منهم، وولاهم المناصب العسكرية والمدينة الرفيعة، فزاد نفوذهم، وعلا شأنهم في دولة آل سامان، والمعروف أن الأتراك من العناصر التي كانت مصدرا للقلق والاضطرابات في الدول التي استعانت بهم، ومن بينها الدولة السامانية، فقد أضعفوها، وعملوا على زوالها.

ومن أبرز هؤلاء الأتراك الذين أرتفع شأنهم في الدولة السامانية "ألبتكين"، كان يعمل في الجيش الساماني، وما زال يرتقى في شلك الوظائف حتى ولى منصب حاجب الأمير عبد الله بن نوح (٣٤٣ - ٣٥٠هـ، ٩٥٤ - ٩٦١م) ومن ثم ارتفع شأنه، وازداد نفوذه في الدولة السامانية، حتى أ، الوزير كان يأتمر بأمره، ويلتزم بتنفيذ تعليماته وتوجيهاته.

لم تصف الأمور لألبتكين، إذ خشى الأمير عبد الملك بأسه، وعول على إبعاد عن حاضرة دولته، فأسند إليه. ولاية خراسان في عام ٣٤٩هـ / ٩٦١ ولما توفي الأمير عبد الملك سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م تشاور الأمراء في الدولة السامانية مع ألبتكين - الذى كان أكبرهم فيمن يراه مناسبا لتوليئه أمر الدولة السامانية فوقع اختيار ألبتكين

على عم الأمير المتوفى، ورفض اختيار منصور بن عبد الملك خلفا لأبيه، لأنه شاب حدث لم تحنكه التجارب، على أن اقتراح ألبتكين لم يعمل به، ذلك أن الأمراء ولوا منصورا دون أن يتظروا وصول ألبتكين. لذلك نشأ العداء بين الأمير الجديد، منصور بن عبد الملك وبين ألبتكين، الذى رفض اختياره كما قلنا أميرا على السامانيين، ولم تجد محاولات ألبتكين في التودد للأمير الساماني.

خشى الأمير منصور من انتفاض ألبتكين عليه في خراسان فاستدعاه إلى بلاط، ولما علم ألبتكين أن الأمير الساماني يضم له السوء، رفض التوجه إليه، وأظهر التمرد والعصيان فعزله منصور عن خراسان، وأسند ولايتها إلى أبي الحسين سيمجور، فقصده ألبتكين بلخ. وعول الأمير الساماني على إخضاع هذا القائد الثائر، فأرسل إليه جيشا، اشتبك معه وهزمه، فتوجه ألبتكين إلى غزنة، وحاصرها واستولى عليها من حاكمها الساماني، "أبو بكر لوبك"، ولم يكتف بذلك غزا زبلستان وأقام بها إمارة مستقلة عن سادته السامانيين عاصمتها غزنة، على أن الأمير منصور الساماني لم يقف مكتوف اليدين إزاء تمرد ألبتكين، فبذل عدة محاولات لسحق تمرده، وباءت كلها بالفشل، فكف عنه، وبذلك قوى شأ، ألبتكين في إمارته، وتوطد فيها سلطانه.

ولما توفي ألبتكين سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣م خلفه في حكم غزنة ابنه أبو إسحاق إبراهيم - قائد جيوش خراسان السامانية - غير أنه لم يستطع السيطرة على مقاليد الأمور في غزنة، إذ ثار عليه أهلها، وطردوه من بلدهم، فاستنجد بالأمير منصور بن نوح، فأمده بجيش مكنه من استرداد غزنة وحكمها باسم السامانيين. وبذلك استرد السامونيون نفوذهم على غزنة.

على أ، أبا إسحاق لم يلبث أ، توفي دون أن يترك وريثا يعقبه في حكم غزنة، فحكمها بلكاتين أحد مماليكه وضرب النقود باسمه في غزنة سنة ٣٥٩هـ / ٩٦٩م وخلف بيرى بلكاتين وهو فيما يبدو من أهالي غزنة، غير أنه لم يستطع القيام بأعباء الحكم فثار عليه الجند وخلعوا طاعته، ونظروا فيمن يصلح لحكم غزنة، فلم يروا أفضل من سبكتكين لما عرفوا من علقه ودينه وكمال الخلال فيه وصرامته، ومما يجدر ذكره أن سبكتكين هو أحد موالى ألبتكين وكان حاجبا لابنه إسحاق "عليه مدار أموره، ويده مناطم شئونه" وولى سبكتكين إمارة غزنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦م.

لما أفضى الأمر على سبكتكين، استطاع سياسته، وبعد عمته اكتساب محبة الرعية وأمراء البلاد المجاورة له، ولم يلبث الخليفة العباسي أن اعترف بحكومته، فاصطبغ حكمه بهذا الاعتراف بالصبغة الشرعية، وتحققت أمنية له طالما اختلجت في صدره فتقلب بناصر الدولة، وبعث له الخليفة بالعقد والخلع التقليدي، وأصبح سبكتين المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية الشرعية. وعلى الرغم من استقلاله الفعلي ظل يظهر ولاءه للسامانيين.

لم يكتف سبكتكين بحكم غزنة، بل عمل على بسط نفوذه على البلاد المجاورة، فبسط سيطرته على "قصدار" القريبة من غزنة، كما سيطر على خراسان، وشرع في غزو أطراف الهند، واطر على كثير من المعامل والحصون هناك "فاتسعت رقعة ولايته" وعمرت أرض خزانته، وأشفقت النفوس من هيئته وتوفي سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م وإليه يرجع الفضل في وضع أساس إمبراطورية الغزنويين، إذ امتد إلى سلطانه إلى ناحية الهند حيث أسس بها حكومة في أخبي أسس دولة كبيرة في جنوب غرب آسيا.

ويهمنا في دراستنا هذه أ، نتحدث بالتفصيل عن فتوحات الغزنويين في الهند، فقد أنشأ جيشاً قويا من الأفغان والترك، ورأى ضرورة الانطلاق بتلك القوة الهائلة إلى ميدان فسيح ولم يكن في استطاعته الاتجاه نحو بلاد العراق لأن البويهيين كانوا قد وطدوا نفوذهم فيها، كما أن بلاد ما وراء النهر كان القره خاتيون يعملون على بسط سيطرتهم عليها، وانتزاعها من السامانيين، لذلك انطلق الغزنويون إلى بلاد الهند من منطقتهم الوعرة كما سنرى.

ومما لا شك فيه أن الرغبة في الجهاد ورفع راية الإسلام في غير بلاد الإسلام من أقوى الأسباب التي دفعت الغزنويين إلى القيام بفتوحاتهم، فمن الثابت أن محمود الغزنوي كان مسلماً قوياً العقيدة تواقاً إلى نشر الإسلام.

سار سبكتكين سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦م على رأس جيش كبير إلى بلاد الهنادكة، ويحكمها جيبال - راجا البراهمة، وتقع مملكته في شمال غرب الهند من

الكنج إلى الأفغان ومن كشمير إلى الملتان، وفتح قلاعاً حصينة على شواهد الجبال، ومن بينها مدينة كابل، وعاد إلى بلاده سالماً ظافراً. ولقد كان لاستيلاء سبتكتكين على كابل أثر كبير في إضعاف شأن مملكة جيبال، ذلك أن كابل تسيطر على المسالك المؤدية إلى السهل الهندي الخصيب ومما هو جدير بالذكر أن يعقوب بن الليث الصفار لما مد فتوحه إلى كابل سنة ٢٥٨هـ / ٨٧١م وجد أهلاً هذه البلاد لا يزالون على الوثنية، فنشر الإسلام بينهم، وتوطد في عهد سبتكتكين وابنه محمود كما انتشر في كافة بلاد الأفغان.

ودهلي وکلنجر، وأعدوا جنداً جاوز المائة ألف مقاتل، ولكن سبتكتكين باغتهم، وشتت شملهم فاضطر الأمراء المتحالفون إلى طلب الصلح على أموال كثيرة طائلة عدا الفيلة وعرة آلاف من رءوس الخيل.

أسفرت غزوات سبتكتكين لبلاد الهند عن امتلاكه بعض البلدان والقلاع في الشمال الغربي من شبه القارة الهندية، وتقع على وجه التحديد بين لمغان وبشاور، مهدت لخلفائه سبيل فتح المزيد من البلدان الهندية كما أدت انتصارات سبتكتكين على أعدائه إلى ازدياد قوته وهيئته، فأطاعه الأفغانية والخليج وأصبحوا مصدرها هاما يمد به بالجند الضروري لتحقيق سياسته.

سار محمود الغزنوي على سياسة أبيه التي تنطوي على بسط سيطرة الدولة الغزنوية على بلاد الهند، وساعد على ذلك قرب غزنة من بلاد الهند الشمالية، ووقوعها على قمة الهضبة التي تشرف على سهولها، ورأى في بلاد الهند الجهاد الأكبر فغزاها سبع عشرة غزوة في مدى في مدى سبعة وعشرين عاماً فيما بين عامي (٣٦١ - ٤١٧هـ / ١٠٠٠ - ١٠٢٦م) حتى خضع له شمال شبه القارة الهندية فأتم فتح إقليم كابلستان، وفتح الملتان وكشمير، وسعى إلى نشر الإسلام وإحلاله محل البرهمية في كل مكان، وأضع البنجاب حيث استطاع خلفاؤه من بعده أن يثبتوا سلطانهم في عاصمتهم لاهور طوال مائة وخمسين سنة واندفع في فتوحاته إلى ما وراء نهر الكنج ليختتم فتوحه في الهند باحتلال كجرات.

ولتفصيل ذلك نقول: إن السلطان محمود الغزنوى لما فرغ من إقرار الأمور فى خراسان وسجستان رأى أن يغزو الهند غزوة تكون كفارة لما كان منه من قتال المسلمين، فسار على رأس جيش يتكون من عشرة آلاف مقاتل وعند مدينة.

غير أن جيبال عظم عليه استيلاء المسلمين على أطراف مملكته ورأى أن يشكل خطرا كبيرا على ملكه، إن هو تغاضى عن ذلك فحشد جيشا كبيرا سار على رأسه إلى حدود الدولة الغزنوية عن ذلك ومعه جمع غفير من الجند والمتطوعة بسبب قتال بين الفريقين انتهى بانتصار المسلمين على أعدائهم، وأرسل ملك الهند إلى سبكتكين يعرض عليه الصلح على مال يؤديه وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها إليه. لكن محمود بن سبكتكين أقنع أباه برفض الصلح إذ أبى إلا أن يكون فيصل الحرب عنوة وقهرا حمية للإسلام والمسلمين، على أن جيبال عاد إلى طلب الصلح، وهدد بأن الهنادكة لا يهابون الموت إذ طرقتهم طارق، فهم سيفقتون أعين أفيالهم ويلقون بأطفالهم فى النار ويخربون بيوتهم بأيديهم، فهم يعرضون أنفسهم على سيوفهم ورماحهم، فيزهقون أرواحهم بأيديهم، فلا يجد المسلمون حين يدخلون ديارهم إلا تلالا خربة عندئذ عدل سبكتكين وابنه محمود عن موقفهما، وتم الصلح بين الفريقين على ألف ألف درهم وخمسين رأسا من الفيلة يؤديها جيبال إلى السلطان الغزنوى ويتنازل له عن عدد من البلدان والقلاع، وسير معه سبكتكين من تسلمها.

غير أن جيبال نقض الصلح، وقبض على المسلمين الذين وفدوا عليه لتنفيذ شروط الصلح، وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه الموجودين عند سبكتكين، فلما نمت ذلك إلى علم السلطان الغزنوى لم يقف مكتوف اليدين، بل عول على النفاذ إلى أرض العدو وإعادة إخضاع جيبال. فسار إلى مملكته، وعاش فيها فسادا وتخريبا، وقصد لمغان وهى من أحسن قلاعهم فاستولى عليها وهدم بيوت الأصنام، وأقام فيها شعائر الإسلام، وسار عنها يفتح البلاد، وينكل بمن يعترض طريقه من الهنود، وعاد إلى غزنة فاستعان جيبال على خصمه بأمرأه أجمير

والوهن، فارسل خسرو شاه السلطان الغزنوي إلى شهاب الدين قائد الغور وفدا يطلب الأمان فأجابه

شهاب الدين إلى طلبه، ودخل الغور لاهور، وقبضوا على خسرو شاه. وبذلك فقدت الدولة الغزنوية آخر معاقتها، زالت الدولة الغزنوية بذلك في الهند وغير الهند، وامتد ملك الغور في أفغانستان وبلاد الهند على حساب الدولة الغزنوية، كما اتسع ملك الغور واستقر سلطانهم الدين بإقامة الخطبة له بالسلطنة، ولقبه الخليفة غياث الدين والدنيا، معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين، ولقب السلطان غياث الدين أخاه شهاب الدين، عز الدين. وأكسب اعتراف الخليفة العباسي لسلطان الغور الصفة الشرعية لحكمه على البلاد التي دخلت في حوزته. وبذلك قوى نفوذ غياث الدين.

لم يكتف الغور بما امتلكه من بلدان، بل سعوا إلى توسيع دائرة نفوذهم، فبعد أن استقر أمر لاهور، سار السلطان غياث الدين محمد في صحبة أخيه شهاب الدين إلى هراة وشد الغور عليها الحصار، وكان يسيطر عليها جماعة من الترك السلاجقة يخضعون للسلطان سنجر، وما زال الغور يحاصرون هراة ويضيقون عليها الحصار حتى طلب أهلها الأمان، فأمنهم غياث الدين محمد، ودخل هراة، وضمها إلى دولته، وتقدم سلطان الغور إلى "بوشنج" واستولى عليها، ما امتلك بادغيس وبعض البلدان المجاورة لها في إقليم خراسان.

يتضح لنا مما تقدم أن إمارة الغور الأفغانية انضمت إلى الدولة الغزنوية في عهد السلطان محمود، واعتنق أهلها الإسلام، وترقبوا الفرص للعودة إلى الاستقلال ولما ضعفت الدولة الغزنوية، تمكنوا من الانفصال عنها، بل وتجاوز أراضيهم الجبلية الوعرة إلى بلاد الغزنوية في أفغانستان وبلاد الهند حتى أدخلوها في دائرة نفوذهم وضموا إلى دولتهم كذلك أجزاء من إقليم خراسان وإقليم هندا.

## الغور وبلاد الهند

يرجع إلى الغور الفضل في توطيد دعائم الحكم الإسلامي في شمال الهند، وحقيقة أن السلاطين من بنى سبكتكين هم الذين فتحوا أمام قادة المسلمين من بعدهم سبيل التوسع والفتح في بلاد الهند، إلا أن سياسة سلاطين بنى سبكتكين تختلف عن سياسة سلاطين الغور في الهند، فالغوريون لم يعلموا على تثبيت أقدامهم للحصول على المغنم الكثيرة من بلاد الهند، أما الغور فقد استقروا في البلاد الهندية التي ضموها إلى حوزتهم، ومن ثم احتفظت الهند بمالها وثرواتها واتسع سلطانهم في بلاد الهند، ورأى الهناركة في المسلمين خلاصا من نير أمرائهم الذين جرموهم من التدرج في الوظائف مهما كانت كفاياتهم ومعتقداتهم، بينما يساوى الإسلام بين أبنائه.

وقبل أن نتحدث عن فتوحات الغور في بلاد الهند يجدر الهند يجدر بنا أن نناقش الدوافع والأسباب التي وجهت أنظار المسلمين الغور إلى بلاد الهند.

لما كانت دولة الغور قد قامت في أفغانستان في منطقة جبلية وعرة، واتخذت لها قوى ضاربة قهرت الغزنويين، وانتزعت ممتلكاتهم في غزنة وما جاورها، فمن الطبيعي أن يعمل الغور على البحث عن ميادين جديدة للتوسع، ومن الطبيعي جدا أن تكون بلاد الهند هي ذلك الميدان، ويؤيد ذلك ما ذكره المؤرخ بانيكار إذ قال: "كلما كانت أفغانستان قوية مدت نفوذها إلى بلاد الهند، والعكس كلما ضعف أمر أفغانستان أمنت الهند من غزوها لأراضيها". ومن السباب التي دعت الغور على الاتجاه إلى بلاد الهند عدم استطاعتهم الزحف إلى وسط آسيا حيث الدولة الخوارزمية ودولة الخطا تقومان في هذه الجهات، ولا تمكنان الغور من التوغل في بلادهما.

وكان من الضروري للغور، ومن المنتظر أيضا أن يولوا وجوههم شطر الهند لأن الغزنويين نقلوا مقر دولتهم إلى لاهور، وأخذوا في العمل على تقوية أمرهم

لاسترداد البلاد التي انتزعتها الغور منهم في أفغانستان، فكان لابد إذن للغور من القضاء نهائياً على آخر معاقل الغزنويين في الهند حتى يأمنوا على دولتهم الناشئة من أية محاولة قد يبذلها الغزنويون لاسترداد أفغانستان منهم.

وهناك أسباب أخرى شجعت الغور على الاتجاه إلى بلاد الهند، فالأمراء كما سنرى في الشمال الهند أضعفتهم وأنهكت قواهم الانقسامات والخلافات، وعلى ذلك رأى الغور أنهم لن يواجهوا متاعب كثيرة في تحقيق سياستهم في بلاد الهند. ولا يفوتنا أن نذكر أن الغور كانوا حديثي عهد بالإسلام تحذوهم الرغبة والأول في الجهاد في سبيل نشر الإسلام في غير بلاد الإسلام، وبلاد الهند التي لا يزال معظم سكانها على الوثنية خير ميدان يجاهد فيه الغور من أجل رفع راية دينهم ونشره. ولقد انقسم القسم الشمالي من الهند حينما شرع الغور في الزحف إليها إلى ممالك متعددة منقسمة على نفسها ومستقلة عن بعضها البعض، فهناك مملكة البنجاب ويحكمها السلطان الغزنوي "خسروشاه" - آخر سلاطين بني سبكتكين، ومملكة الملتان، وتحكمها أسرة هندية تسمى سمارس، يضاف إلى ذلك إمارات يحكمها أمراء هنود الراجبوتيين في شمال الهند من أهمها مملكة دهلي وجمير ومملكة قنوج وتضم بنارس، ومملكة جوجورات ونهر البنغال، ويسمى هذا القسم هندوستان ويشمل أخصب بقاع الهند وأكثرها سكاناً.

سار الغور بقيادة السلطان غياث الدين محمد إلى الملتان سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م واستولوا عليها، ثم ضموا بشاور ولم يستطيع بهيم ديوا راحا نهر واله - وقف زحف الغور مما مكنهم من مواصلة تقدمهم في أراض السند حتى استولوا عليها.

قصد السلطان الغوري بعد ذلك لاهور، وتصدى له السلطان خسروشاه وأوقع به الهزيمة، فاتحه سلطان الغور إلى "سيالكوت" وانتزعتها واتخذها قاعدة لشن الغارات على لاهور، وبعد عدة سنوات استطاع سلطان الغور الاستيلاء على

لاهور، وبسقوط لاهور فى أيدى الغور، اكتملت سيطرتهم على إقليم البنجاب بأكمله.

لما أتم السلطان الغورى ضم بلاد السند والبنجاب إلى حوزته عهد إلى أخيه شهاب الدين بحكم هذه البلاد نيابة عنه فاتخذ من لاهور مركزا له، وعمل شهاب الدين منذ أن ولى أمر هذه البلاد على تثبيت أقدام الغور فيها وتوسيع ممتلكاتهم فى الهند.

فظن الأمراء الراجبوتيون إلى خطر الغور وخشوا من ازدياد نفوذهم ورأوا فى ذلك خطرا يهدد سلطانهم فتخالفوا فيما بينهم ونسوا خلافاتهم وعقدوا العزم على طرد الغور من بلاد الهند قبل أن يهاجموا ديارهم ويتتزعوا بلادهم. أو بعبارة أخرى يتغذوا بالغور قبل أن يتعيشوا بهم. وفى سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م حشد الأمراء الراجبوتيون أمراء شمال الهند أصحاب دهلاى وآجرم وقنوج وبهار والبنغال والكجرات وبندلخاند، حشدوا قواتهم عند سر هند على حدود البنجاب الشرقية واستقروا الهنادكة بالانضمام إليهم فأقبلوا عليهم من كل حذب وصوب على الصعب والذلول، فلما علم شهاب الدين بنوايا الأمراء الراجبوتيين نحو وتجمعهم لملاقاته سار إليهم على رأس جيش كبير ودارت معركة عنيفة بين الفريقين انتصر فيها الهنادكة على الغور وقتلوا واسروا من المسلمين كثيرين، وأصيب شهاب الدين بجراح شديدة وكاد أن يلقى مصرعه لولا أن بعض جنده حمله إلى خارج ميدان القتال، ودارت المعركة عند (تارين (على مقربة من (ثيسر).

على أن غياث الدين سلطان الغور لم يتغاض عن هزيمة جنده فى الهند بل رأى ضرورة محاربة أعدائه وإخضاعهم، وإعادة نفوذ الغور والغلبة، فأعد جيشا مكونا من مائة وعشرين ألف مقاتل من الأفغان والترك والخلج والفرس، سار على رأسه شهاب الدين فى العام التالى، والتقى بأعدائه فى نفس الموضع الذى نشبت فيه معركة العام السابق، وعلى الرغم من التفوق العددى للهنادكة واستخدام الفيلة فى الحرب إلا أن قوات الغور أحرزوا انتصارا رائعا على الهنادكة وقتلوا ألوفًا

منهمك من بينهم بعض الأمراء وخر أمير "آجمير" صريعا، وغنم الور مغنم كثيرة.

وكان لهذه الواقعة آثار بعيدة المدى في شمال بلاد الهند، فقد تقلص نفوذ وسلطان الأمراء الراجيوتيين في هذه الجهات، ما امتد سلطان الغور إلى بلاد روستى وسمته وكهرام وهنسى وأحمير، وحكم شهاب الدين الأصنام في هذه البلاد التى امتلكها، وشيد مساجدها يذكر فيها اسم الله، وحطم معابد الشرك كذلك أصبح الطريق مفتوحا أمام الغور للزحف إلى دهلى "وهى كرسى الممالك التى فتحها الغور فى بلاد الهند" وفعلا تمكن الغور من ضم دهلى إلى حوزتهم وبذلك اتسعت أسس الحكم الإسلامى فى هذه البلاد.

عهد شهاب الدين الغورى إلى مملوكه قطب الدين أيبك بحكم البلاد الهندية الداخلة فى دائرة نفوذية نيابة عنه، وعاد إلى غزنة، وجدير بالذكر أن أيبك عرف عنه الحنكة السياسية والكفاءة الحربية.

وجعل من دهلى قاعدة لحكمه فى بلاد الهند بدلا من لاهور التى تبعد عن البلاد الهندية التى يمتلكها الغور. على أن الأمراء الهنادكة لم يلبشوا أن أعدوا عدتهم وتأهبوا لطرد الغور من بلادهم فى بلاد الهند، وواتتهم الفرصة حين نمت إلى علمهم هودة شهاب الدين إلى غزنة فاتحدوا بقيادة "راجا قنوج جندار" ومملكته تمتد من وراء دهلى حتى حدود بنارس، وفى غضون ذلك وصل شهاب الدين إلى بلاد الهند، وانضم إليه قطب الدين، وسار جيش الغور إلى الأمراء المتخالفين، واشتبك الفريقان فى معركة فى شاندار، وانتصر فيهل المسلمون على أعدائهم انتصارا رائعا، وزحف الغور إلى بنارس واستولوا عليها وقتل أمير قنوج فى ٥٩٠هـ / ١١٩٤م. ومن أبرز نتائج هذه المعركة ازدياد نفوذ وهيبة الغور فى بلاد الهند وفشل الأمراء الراجيوتيين فى شمال الهند فى استرداد بلادهم التى انتزعا منها المسلمون لذلك لجئوا إلى صحراء "الراجيوتانا" التى حملت اسمهم (الثأر)

لم يأل قطب الدين أيك جهدا في سبيل اوسيع رقعة دولة الغور في الهند، بل عمل ضم المزيد من بلاد الهند إلى حوزة الغور، ففي ٥٩٣هـ / ١١٩٦م استولى أيك على " جاوالار " Gawalior كما استولى على نهر واله . وفي سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م ضم كلنجار إلى حوزته ، ولم تستطيع قلعته الصمود أمام ضربات المسلمين القوية فاستلمت حاميتها، يضاف إلى ذلك استيلاء الغور على بعض البلاد في شمال الهند، وبذلك سيطر الغور على أراضي شمال الهند كلها .

وبينما يعمل قطب الدين أيك على تثبيت أقدام المسلمين في بلاد الهند خرج قائده محمد بن بختيار الخلجي في قلة من الجند يواصل سياسة حكومته الرامية إلى توسيع إمبراطورية الغور في الهند، فاستولى على " بندتتورى " عاصمة إقليم بهار ويحكمها ملوك أسرة . " بالا " Pala ولم يلبث إلا أن استولى على مملكة بالا بأسرها . وكانت الديانة البوذية عقيدة السواد الأعظم من سكانها . فحطم معابدهم وأصنامهم . ونشر الإسلام بينهم وانضمت هذه البلاد إلى إمبراطورية الغور .

وأذن قطب الدين أيك - نائب سلكان الغور في الهند - إلى الخلجي بمواصلة الفتح والتوسع ، فتجه محمد بختيار الخلجي إلى " نادية " عاصمة البنغال وعلى الرغم من قلة عدد قواته فقد اقتحم نادية، ويحكمها لكشمن سنا من أسوة سنا سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٧م وفر الملك الشيخ من عاصمة دولته بعد أن علم بدخول الغزاة المسلمين لها - فاستولى عليها بختيار وضمها إلى مملكة الغور . وأقام فيها الخطبة لساكن الغور، وقد يسر سقوط نادية في أيدي الغور أمر الاستيلاء على إقليم البنغال بأكمله .

لم يكتف بختيار الخلجي بما أحرزه من انتصارات بل تطلع إلى السير إلى التبت والاستيلاء عليه ففي سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م اتجه من " ديفكوت " Devko إلى " دناجبور " Dinajpur في عشرة آلاف فارس . لكن حملته فشلت فشلا ذريعا، وفي عودته إلى ديفكوت فقد معظم جيشه . ولم يلبث هو كذلك أن

توفى . وقد حرس قطب الدين أيبك على المحافظة على ممتلكات الغور الهندية فقضى على ممتلكات الغور الهندية فقضى على محاولات بعض أمراء الهند فى الاستقلال على مملكة الغور، فقَاتلهم أيبك وهزّمهم شر هزيمة، وشتت شملهم واسترد نهرها له وعفا عن حاكمها . وإبقاء فى بلده بعد أن دفع مبلغا كبيرا من المال وتعهد بعدم العودة إلى العصيان .

بدأت متاعب الغور فى بلاد الهند فى القرن السابع الهجرى ذلك أن بعض الولايات الهندية خرجت على حكومة الغور متتهزة فرصة انشغال الغور فى الحروب فى إيران، ومن أبرز الانتفاضات التى أنهكت الغور ثورة الكهكربة وبلادهم قليلة المياه صعبة المسلك وتقع على قمم الجبال، وامتنعوا عن دفع الخراج إلى حكومة الغور وقطعوا الطريق بين غزته ولاهور . ولم يستطع وإلى الملتان التصدى لهم، ولما زاد خطر الكهكربة أرسل شهاب الدين إلى قطب الدين أيبك يأمره بالضرب على أيدي الكهكربة، وإعادتهم إلى الولاء والطاعة، وأرسل أيبك إليهم يدعوهم إلى الطاعة، وترك التمرد والعصيان، لكن الكهكربة لم يذعنوا لنداء نائب السلطان وبقوا على عصيانهم، وطرّدوا عمال الغور من بلادهم، وأقبلت الهنود عليهم تؤيدهم فى موقفهم العدائى من الغور فقوى أمرهم .

لما رأى شهاب الدين عدم استطاعة عماله فى الهند إخضاع الكهكربة وأعوانهم سار بنفسه إلى بلاد الهند لإعادة الأمن والهدوء إليها واشتبكت قوات الغزو مع الكهكربة فى قتال عنيف، هزم أعدائهم، وقتلوا كثيرا منهم، وفر من نجا إلى هناك وأشعلوا نارا وألقوا بأنفسهم فيها قبل أن تأخذهم سيوف المسلمين، وغنم المسلمون منهم ما لا يسمع بمثله، وبذلك عادت إلى الغور هيبتهم فى بلاد الهند وأمنت إمبراطوريتهم فى الهند من حركات التمرد، بل وفد على شهاب الدين بعض رؤساء القبائل الذين انضموا إلى الكهكربة يعلنون ولاءهم وعودتهم إلى الطاعة .

ويجدر بنا أن نناقش أسباب تفوق الغور المسلمين على الهنود، فمن بين هذه الأسباب دقة المسلمين ومهارتهم فى إدارة العمليات الحربية، يضاف إلى ذلك أن بلاد الهند كانت تنقصها وحده سياسية تجمع بينها وتقوى من أمرها إذ كانت الهند دولا مستقلة يحكمها أشخاص لا يرتبطون مع بعضهم البعض برباط يمكن أن يؤدى دورة فى الدفاع عن الوطن فى حالة تعرضه للغزو.

حقيقة أن الأمراء الراجبوتيين كانوا محاربيين أكفاء لكنهم لم يخضعوا للأمير يوحد شملهم فى مواجهة العدو المشترك، ولما واجهوا الغور، لم يستطيعوا الصمود كثيرا أمام هجماتهم نظرا لأن الترك كانوا فى مستوى أعلى منهم فى التدريب والتنظيم والتطور الحربى، والهنداكة لم يكن عندهم الاستعداد الكافى لمسيرة أحدث التطورات فى التنظيمات العسكرية والأساليب الحربية، وأخيرا فإن الدين الإسلامى قد أعطى الغور حماسا وقوة للجهد فى سبيل الله، ولقد وحد بين المسلمين وجمع شملهم روح الأخوة والمساواة التى بثها الإسلام فى قلوب أبنائه. أما الهنداكة فالنظام الطبقي السائد بينهم والذى بمقتضاه، انقسم الناس إلى منبوذين وإشراف عرقل وقوفهم صفا واحدا فى وجه غزاتهم.

والخلاصة أن سلاطين الغور، نجحوا فى إقامة دولة إسلامية فى شمال الهند ومهدت سياستهم فى هذه البلاد إلى قيام إمبراطورية لها تقاليد ومقوماتها، ذلك أنهم أسندوا إدارة دولتهم فى الهند إلى رجال أكفاء أحسنوا توجيههم، فعملوا على تثبيت الحكم الإسلامى فى هذه البلاد، ولقد حرص خلفاء شهاب الدين - من ممالك الترك - على إتباع التقاليد التى وضعها سيدهم فى حكم الهند لذلك يمكن القول بأن شهاب الدين الغورى ليس للهند فقط، بل يعتبر بحق واضع أساس إمبراطورية المسلمين فى الهند.

## ضعف مملكة الغور وانهارها

سار السلطان غياث الدين محمد فى دولته سيرة حسنة فقد شيد بها المساجد والمدارس، وكان ينسخ المصاحف بخطه، ويودعها فى مكتبات المدارس التى أسسها، وخفف عن الناس عبء الضرائب، ولم يتعرض لمال أحد بسوء، وإذا مات رجل فى غير بلدة، سلم ماله إلى أحد التجار من أهل بلده، فإن لم يجد أحدا يسلمه إلى القاضى، ويختتم عليه إلى أن يصل إليه من يأخذه من ورثته وكان يخلع على الفقهاء والأدباء والشعراء، وينفق على الفقراء، يضاف إلى ذلك حرصه على وحدة العقيدة، إذ كان يكره التعصب لمذهب معين، ويقول: التعصب فى المذاهب من الملك قبيح.

كذلك كان شهاب الدين محمد عادلا حسن السيرة فى رعيته وبلغ من اهتمامه بسير العدالة أن القاضى بغزنة يحضر داره فى بعض أيام الأسبوع، ويحضر معه أمير حاجب وأمير دار وصاحب بيت المال، فيحكم القاضى، وموظفو السلطان ينفذون أحكامه على الصغير والكبير والشريف والوضيع، وإن طلب أحد الخصوم الحضور عنده أحضره، واستمع إلى أقواله وأمضى عليه أو له حكم الشرع. لذا سارت الأمور فى مملكة الغور على أحسن نظام، بعد أن ساد العدل البلاد.

على أن دولة الغور اضطرت اضطرابا شديدا بعد وفاة السلطان شهاب الدين محمد، فقد تنافس الأمراء والقواد حول عرش السلطنة، وحدثت حروب انتهكت قوى الدولة الغورية حتى زالت فى النهاية.

فلما توفى شهاب الدين تنافس حول السلطنة غياث الدين محمود نجل السلطان غياث الدين محمد، يساعده تاج الدين يلدز - من أقوى قواد الغور - وابنا بهاء الدين الغورى - صاحب باميان - علاء الدين وجلال الدين، ودخل الأخوان غزنة فعلا وانتزعا قلعتهما، وفرقا الأموال على الجند والأعيان، فدانت

لهما غزنة بالولاء والطاعة منتهزين فرصة تغيب غياث الدين محمود فى خراسان، على أن غزنة لم تصف لعلاء الدين وجلال الدين، ذلك أن تاج الدين يلدز لم يلبث أن دخلها ونهب جنده المدينة، واستولى يلدز على القلعة، وأخرج الأميرين الغوريين منها ومن غزنة كذلك، وكان يلدز قد عظم أمره بعد أن استولى على كل ما فى معسكر سيده شهاب الدين من مال وسلاح وجند.

على أن يلدز لم يكن يعمل باسم غياث الدين محمود كما كان يدعى، بل كان يعمد إلى انتزاع الحكم لنفسه، فلما استوثق له أمر غزنة، لم يأمر الخطيب بالخطبة لغياث الدين محمود وإنما يخطب للخليفة، ويترجم على شهاب الدين، وفرق الأموال فى الناس، فطابت نفوسهم.

أما غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد فقد تربع على عرش الملك، وخطب لنفسه بالسلطة، وتلقب بألقاب أبيه غياث الدين محمد فى فيروزكوه، وفرح أهل البلد به، ونكل بأعدائه ومعارضيه، وسلك طريقه أبيه فى الإحسان والعدل، إلا انه لم يستطع استرداد بلاد خراسان التى انتزعها الخوارزميون من مملكته.

على أن أمر يلدز قد ساء، ذلك أن قطب الدين أيك - نائب سلطان الغور فى الهند - أرسل إلى يلدز يهدده بالحرب، إن لم يعد إلى طاعة غياث الدين محمود، ويقيم له الخطبة، كما أن أحد قواد يلدز، واسمه " أيدكز التتر " ساءه موقف يلدز، فخرج على صاحبه، واستولى على غزته وأموالها، وأقام الخطبة فيها لغياث الدين محمود، وأرسل غياث الدين محمود إليه يلقبه " ملك الأمراء " ورد عليه المال الذى كان أخذه من الخزانة، وقال له " أما مال الخزانة فقد أعدناه إليك لتخرجه، وأما أموال التجار وأهل البلد، فقد أرسلته مع رسول ليعيده إلى أربابه حتى لا يحدث ظلم فى دولتنا، وقد عوضتك عنه ضعفه. وأرسل أموال أهل غزته إلى قاضيها، وأمره بردها إلى أصحابها، وسار غياث الدين محمود إلى

" بست " ، واستردها من يلدز وأحسن إلى أهلها، وأعفاهم من خراج سنة لما نالهم من الضر والأذى على أيدي هذا القائد.

أضعفت هذه الانقسامات من شأن دولة الغور، حتى أن السلطان خوارزمشاه، انتزع ما تبقى في خراسان بل طمع في الاستيلاء على البقية الباقية من ممتلكات الغور في أفغانستان، فأمر - أمير ملك - عاملة على مرآة بقصد غياث الدين محمود - صاحب الغور وفيروزكوه فسار أمير ملك - القائد الخوارزمي إلى فيروزكوه - عاصمه مملكة الغور - ولما رأى غياث الدين محمود - سلطان الغور - أن لا قبل له بالجند الخوارزمي طلب منه الأمان، فأمنه القائد الخوارزمي، ونزل سلطان الغور عليه من القلعة، ولكن القائد الخوارزمي نكث بالعهد وقبض على السلطان الغوري وقتله، وضم بلاد الغور إلى دولته الخوارزميه سنة ٦٠٥ هـ.

ولم يلبث علاء الدين محمد - السلطان الخوارزمي - أن استولى على كافة أرجاء خراسان، وانتزع " باميان " من الأميرين الغوريين علاء الدين وجلال الدين، واستتاب يلدز عنه في حكم غزنة، فأقام الخطبة له فيها، ونقش اسمه على السكة غير أن خوارزم شاه لم يطمئن إلى يلدز وأعوانه، فسار بنفسه إلى غزته سنة ٦١٢ هـ، وقتل من بها من جند الغور ولا سيما الأتراك، وهرب يلدز إلى لاهور حيث اغتاله بعض رجال شهاب الدين الغوري.

وبذلك زالت الدولة الغورية على أيدي الخوارزميين والهنداكة. ويذكر ابن الأثير أن دولتهم كانت من أحسن الدول سيرة، وأعدلها وأكثرها جهادا.

## ١ - سلطنة دهلي الإسلامية في عهد الملوك المماليك

شهد العالم الإسلامي في تاريخه حكاما من الترك كانوا أرقاء عند سادتهم السلاطين بالجنديّة، وتدرجوا في سلكها حتى بلغوا مناصب رئيسية، وقد يحدث في حالة وفاة السلطان وتركه ذرية ضعافا، أو عدم وجود وارث يخلفه أن يقوم هذا التركي - الذي كان عبدا للسلطان المتوفى - بانتزاع السلطنة لنفسه، فسبكتين كان مملوكا لأليتكين، ولما توفى سيده دون أن يترك من يرثه مكن سبكتين لنفسه، وانفرد يحكم دولة سيده، ووضع أساس إمبراطورية الغزنويين في جنوب غرب آسيا، وظل أعقابه يتوارثون حكم الدولة الغزنوية حوالي قرنين من الزمان، وعماد الدين زنكي أقام دولة في الموصل على أنقاض دولة سادته السلاجقة، وقد كان أتابكا لهم. والمماليك في مصر أقاموا دولتهم بعد أن ضعف ساداتهم سلاطين بنى أيوب. وهذا ما حدث بالنسبة لموضوع بحثنا، إذ أقام المماليك دولة في الهند بعد أن زالت دولة الغور، وظلت تحكم أربعة وثمانين عام (١٢٠٦ - ١٢٩٠) ويذكر " لين بول " في هذا الصدد أن الجندي الكفء من أرقاء الترك كان يستطيع أن يصل إلى أعلى الدرجات وأرفعهما بما في ذلك منصب السلطنة. أما عامة الناس من الزراعة والصناع والتجار، فكانت أوضاعهم محمدا لا تتغير ولا تتبدل، ويتعاقب عليهم الحكام من مختلف الأجناس، ويقفون منهم موقف المتفرج، وما عليهم إلا الطاعة والولاء للحاكم سواء كان إيرانيا أو هنديا راجيوتيا. أو تركيا أو أفغانيا أو مغوليا، ويسيروا حيث تسير بهم الحياة، كيفما أراد حكامهم الذين يبهونهم الحياة أو ينتزعون حقوقهم فيها.

وسلاطين إمبراطورية المماليك في الهند كانوا أرقاء من أجناس مختلفة، وصلوا إلى ما وصلوا إليه بفضل ما اتصفوا به من أجناس مختلفة، وصلوا إلى ما وصلوا إليه بفضل ما اتصفوا به من شجاعة وبسالة وكفاءة، وكان شأنهم شأن ممالك مصر يحرسون على تخليد أسمائهم بإقامة المنشآت الكبيرة مثل المساجد الفخمة والعمائر الرائعة.

وقطب الدين أيك - أول سلاطين الماليك في الهند - كان مملوكا عند سيده شهاب الدين - سلطان دولة الغور الأفغانية - (٥٩٩هـ - ٦٠٢هـ) وهو تركستاني الأصل، اشتراه قاضى نيسابور، وأدبه وأحسن تأديبه، وعلمه علوم الدين وأساليب الفروسية، ولما توفى هذا القاضى حمله أحد تجار الرقيق على غزنة حيث اشتراه شهاب الدين الغورى، ولمس فيه الشجاعة والذكاء وحسن الخلق، وعهد إليه بالعمل فى الجيش كجندى، وتجلت شجاعته وبراعته الحربية فى معركة تارين سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٥ م، وهى المعركة التى كانت بين السلطان الغور من ناحية، والأمراء الراجبوتيين من ناحية أخرى - وكافأ شهاب الدين مملوكه بأن جعله نائبا له على ممتلكات الغور فى الهند، فأقام فى دهلى وجعلها قاعدة لحكمه فى بلاد الهند بدلا من لاهور.

لم يأل قطب الدين أيك جهدا فى سبيل المحافظة على دولة الغور فى بلاد الهند بل عمل على ضم المزيد من أراضى الهند إلى دولة الغور، وفى سنة ٥٩٣هـ / ٣٠٠م استولى أيك على كواليار ونهروالة، وضم كالنجار إلى حوزته، وكذلك امتلك بلاد " البغال " وأوقف كل محاولة بذلها الهنادكة لتحرير بلادهم من قبضة الغور.

وبقى أيك على ولائه لدولة الغور حتى فى أشد حالات ضعفها، فلما ولى غياث الدين محمود سلطنة الغور سنة ٦٠٢هـ / ٢٠٦م لم يكن هناك إجماع على توليته، فخرج عليه بعض مماليكه، وعملوا على الاستئثار بالسلطة والنفوذ دونه، ومن بين هؤلاء الماليك " تاج الدين يلدز " الذى سيطر على غزنة، وأقام الخطبة فيها لنفسه، وخلع طاعة سلطان الغور، بينما بقى قطب الدين أيك يدير الممتلكات الإسلامية فى الهند باسم سلطان الغور ويقوم الخطبة باسم غياث الدين محمود، وضبط الأمور فى الهند وضرب بيد من حديد على المفسدين، وعارض بشدة الحركات المناهضة للحكم الغورى، فأرسل إلى ديلندر يقبح فعله، ويأمره بإقامة الخطبة للسلطان الغورى، وهدده بالمسيرة إليه ومحاربتة، إن لم يعد إلى

الولاء والطاعة، ولما لم يستجب تاج الدين يلدز قام أيبك بالعمل على ضم غزنة إلى مملكة الغور، وطرده يلدز منها.

على أن يلدز لم يركن إلى الهزيمة بل انتهز فرصة سقوط الدولة الغورية على أيدي الخوارزميين، وسيطر على غزنة وحكمها باسم علاء الدين محمد خوارزم شاه لكنه لم يلبث أن غادر غزنة خوفاً من أن يبطش به السلطان الخوارزمي الذي شك في إخلاصه، وتوجه إلى البنجاب، وانتزعها من نائب قطب الدين أيبك، فسار أيبك إليه، وما زال يطارده حتى غادر الهند. وبذلك أنفرد أيبك بحكم الإقليم الإسلامي في الهند، وأعلن نفسه سلطاناً في لاهور، وأقيمت الخطبة له في بلاد الهند الإسلامية، ونقش اسمه على السكة، واتخذ من دهلي قاعدة لدولته.

على أن قطب الدين أيبك لم يلبث أن عفا عن تاج الدين يلدز كما أحسن إلى غيره من ممالك شهاب الدين مثل ألتمش وقباجة وارتبط بهم بعلاقات مصاهرة، فزوج أخته إلى قباجة، وابنته إلى ألتمش، وتزوج من أخت تاج الدين يلدز، وكفل سياسته هذه ضماناً تأييداً هؤلاء القادة لحكمه، وعدم التصدي له.

ويعتبر قطب الدين أيبك أول سلطان مسلم استقل بحكم دولة المسلمين في الهند وتمكن هذا السلطان بفضل قوته وشجاعته وكفاءته الإدارية من بسط سيطرته على شمال الهند على مدى العشرين عاماً التي حكمها، وضبط الأمور في دولته وسائس الهنادكة أحسن سياسة، وضرب بيد من حديد على أيدي اللصوص وقطاع الطرق، وأنفق بسخاء على الفقراء والمساكين، وحكم الناس بالعدل وعم السلام ربوع دولته حتى قيل أن الذئب والحمل كانا يشربان من نبع واحد في عهده، وساوى في المعاملة بين الهنادكة عظيمهم وحقيرهم، وهذا أمر لم يعتادوه من قبل.

وعنى قطب الدين بالعمارة، ومن أبرز ما خلفه مسجده المشهور الذي بدأ تشييده سنة ١١٩١ م، وأكمله ألتمش سنة ١٢٣٠ م وما تزال منارة هذا المسجد باقية إلى يومنا هذا، وتسمى منارة قطب الدين، ويبلغ ارتفاعها ٢٥٠ قدماً، وعلى

واجهت أحد أبواب المسجد كتب باللغة العربية بحروف بارزة من الحجر " بسم الله الرحمن الرحيم والله يدعوا إلى دار السلام... " ثم كتب تحت ذلك " جرت هذه العمارة بأمر... " وبجانب المسجد أسس مدرسة كبيرة. أما المنار فكانت مكونة من سبع طبقات، لكن الموجود منها الآن خمسة فقط أسس أيك الطبقة الأولى، وأقام أتمش الطبقتين الثانية والثالثة، وأتم خلفاؤه الباقي، وفي كل طابق نقش على جدرانه آيات قرآنية، وبعض المراسم السلطانية.

توفي قطب الدين أيك سنة ١٢١٠ م، وخلفه في الحكم (ابنه آرام شاه) وكان شابا صغيرا لا يستطيع القيام بعبء الملك، لذا عجز عن إدارة على هون الدولة، فاستدعى رجال الدولة أتمش - وكان يلي حكم أحد الأقاليم الهندية، وذكرنا سابقا أنه كان من مماليك شهاب الدين أيك - وطلبوا منه أن يلي السلطنة، فقدم إلى دهلي، وطرد آرام شاه منها، وترجع على عرش السلطة سنة ١٢١١ م.

يعتبر شمس الدين أتمش المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في الهند، وأصله مملوك ابتاعه قطب الدين أيك من غزنة وحمله معه إلى الهند، ولمس فيه نبل الأخلاق والفضيلة والذكاء والشجاعة، فجعله رئيسا لحرسه، ثم أسند إليه حكم بعض ولايات الهند، وكما كان أيك لشهاب الدين الغوري، فقد كان أتمش لأيك.

بعد أن ولي شمس الدين أتمش سلطنة دهلي، تعرض لمشاكل داخلية تستهدف التخلص منه، ذلك أن بعض كبار رجال الدولة طمع في الوصول إلى الحكم منتهزين فرصة الفوضى التي أعقبت وفاة أيك، فاستولى قباجة على الملتان والسند، وتنازع مع تاج الدين حول السيادة على لاهور، ما أن خلفاء بختيار الخلجي سيطروا على بهار والبنغال. يضاف إلى ذلك أن قواد قطب الدين أيك لم يرضوا عن تولية أتمش، وانتهز الأمراء الهنادكة فرصة هذه الاضطرابات والقلاقل، وانشغال السلطان في قمعها وتحركوا لنيل استقلالهم.

لم يقف شمس الدين أتمش مكتوف اليدين إزاء موقف قطب الدين أيك

والترك المناهض له ولحكمه ، والذين لم يرضوا أن ينصب عليهم سلطان هو فى الواقع مملوك لمملوك بل عول على إخضاعهم واشتبك معهم فى معركة بالقرب من دهلى هزمهم فيها شر هزيمة، وأجبرهم على الدخول فى طاعته وكان من أقوى الرجال الذين تصدوا لحكم ألتمش تاج الدين يلدز سيطر على غزنة بعد انهيار دولة الغور وبسط نفوذه على البلاد المجاورة لغزنة حتى أقرب من خوارزم وشن حملات ناجحة على أطراف الهند. وعلى الرغم من أنه أقام الخطبة للسلطان الخوارزمى فى غزنة، إلا أن السلطان لم يطمئن إلى ولاء يلدز له، وسار إلى غزنة سنة ٦١٣هـ / ١٢١٧م لانتزاعها من يلدز، وطرد الأتراك منها، فولى يلدز الأدبار إلى بلاد الهند، والتقى بناصر الدين قباجة - والى لاهور والملتان وديبل، وغيرها من قبل ألتمش - فى معركة عنيفة هزم فيها قباجة، واستولى على لاهور، ثم زحف إلى مدينة دهلى لانتزاعها من ألتمش فتصدى له السلطان الهندى فى معركة عنيفة على الطريق إلى دهلى، وهزمه وقتله فى نارين سنة ١٢١٦ م.

لم يكد يستقر الأمر لألتمش حتى تعرض لخطر جديد من قبل المغول الذين بدءوا يشنون حملاتهم العنيفة على الدولة الخوارزمية، واستولوا على أقاليمها، وألحقوا ببلدانها الخراب والدمار، ولما توفى السلطان الخوارزمى علاء الدين محمد خلفه ابنه جلال الدين منكبرى، وعول على استرداد ملك آبائه وأجداده من براثن المغول المعتدين، فصار إلى خوارزم، لكنه علم أن المغول قد استولوا عليها. . . لذلك اتجه إلى خراسان، وتنقل بين بعض مدنها. ولم يلبث أن غادرها حتى لا يصطدم بالقوات المغولية المرابطة فى خراسان فى وقت لم يكن هو فيه على أهبة الاستعداد لمهاجمة عدوه، فولى وجهه شطر غزنة - وكان يحكمها من قبل أبيه قبل أن يحتلها المغول - ورحب أهل غزنة بمقدمه ورأوا فيه خير منقذ لهم من ويلات المغول وغيرهم، والتفوا حوله، ولما سمع الجند الخوارزمى المبعثر بين كابل وبشاور وغيرها من المدن الواقعة على حدود الهند بمقدمة، سارعوا إليه ودخلوا تحت لوائه، وبذلك كثر جمعه، وأصبح جيشه يضم ستين ألفا من المشاة، وسبعين

ألفا من الخيالة، وواتته الفرصة للعمل على تحقيق هدفه الرامى إلى استعادة دولة أبيه التى انتزعها المغول، فسار على رأس جيشه إلى السهول المحيطة ببيروان Par-wan فى الشمال الشرقى من غزنة، واشتبك مع المغول فى قتال استمر ثلاثة أيام، أحرز فيه على أعدائه انتصارا رائعا، وقتل المسلمون من المغول كثيرين وشجع انتصار جلال الدين، البلاد الإسلامية على الوقوف فى وجه المغول، فثار أهل هراة على والى المغول وقتلوه وأعلنوا ولاءهم لجلال الدين منكبرتى.

لما علم جنكيز خان بانتصارات السلطان الخوارزمى على جنده. وانضمام البلدان الإسلامية إليه، أعد جيشا كبيرا للقضاء على جلال الدين منكبرتى وجنده، وسار على رأس جيشه إلى كابل. والتقى جند المغول بالجيش الخوارزمى فى معركة ضاربة، دارت فيها الدائرة على المغول للمرة الثانية، وغنم المسلمون ما معهم، وفكوا أسر الأسرى، لكن الأمور ما لبثت أن تحولت إلى صالح المغول رغم هزيمتهم، ذلك أن خلافا حدث بين بعض قادة جلال الدين منكبرتى، فارق على أثره القائد التركى بغراق جيش السلطان الخوارزمى واتجه إلى الهند، وتبعه من الجند ثلاثون ألفا كل يريدونه، وحاول منكبرتى أن يثنيه عن عزمه، وألح عليه، بل بكى بين يديه، وخوفه من الله إذا تقاعس عن الجهاد فى سبيله، لكن هذه المحاولة لم تجد مع القائد التركى فتىلا، فقد أصر على الانسحاب الأمر الذى أضعف الجيش الخوارزمى، وأصبح عاجزا عن الوقوف فى وجه المغول.

كل ذلك حدث بينما جنكيز خان يتجه بجحافة إلى الناحية التى يعسكر فيها جلال الدين وجنده، لذلك لم ير السلطان الخوارزمى بدأ من الانسحاب والمسير إلى الهند، ولما بلغ السند، لم يجد من السفن ما يكفى لعبوره هو وقواته. وفى غضون ذلك أدركه جيش المغول ودار قتال عنيف بين الفريقين أبلى فيه المسلمون بلاء حسنا، فلما رأى المسلمون عدم استطاعتهم قتال المغول لقلة عددهم، ونقصان عتادهم، دبوا أمر العبور إلى الهند، بينما عاد المغول إلى غزنة وامتلكوها، وأبدى جلال الدين من ضروب الشجاعة والبسالة مالا مزيد عليه فى العبور حتى أنه بلغ الشاطئ الشرقى ومعه أربعة آلاف جندى كانوا حفاة عراة.

على أن جلال الدين منكبرتي لم يجد استجابة وقبولاً من دولة المماليك في الهند فقد توجه إلى أتمش ورجال دولته خيفة من الخوارزميين. لذلك اصطدم جلال الدين بجند أتمش في السنوات الثلاث التي قضاها في الهند، وبدأ هذا الصدام مع قباجة - حاكم السند الذي حاول منعه من الإقامة في السند خوفاً من أن يتعقبه المغول، ويطيحون به وبولايته، لكن جلال الدين أوقع به الهزيمة، وأحبط محاولته، ولما علم جلال الدين أن المغول يعتزمون القدوم على الهند لدحره والقضاء عليه سار إلى دهلي، وأرسل إلى أتمش يطلب منه أن يمنحه هو وجنده حق الإقامة في دهلي، لكن السلطان المملوكي اعتذر إليه بحجة أن حرارة الجو في دهلي لا تناسب الخوارزميين، ذلك أن سلطان دهلي خشى أن ينضم الجند الترك في دولته إلى سلطان الخوارزميين. وطلب منه الانسحاب من دولته، وحدثت معركة بين الجيش الخوارزمي وجيش أتمش بالقرب من دهلي، وانسحب على أثرها جلال الدين إلى لاهور، وكثر جمع جلال الدين بما وفد إليه من جند أخيه غياث الدين - حاكم العراق - كذلك انضمت إليه قبائل الكهكوية الناقمين على قباجة - حاكم السند - فزادته قوته، وانتزع من والي السند بعض البلدان.

لم يكن جلال الدين يهدف من التجائه إلى الهند اتخاذها مستقراً ومقاماً، لكنه كان يهدف إلى تجنب الاشتباك مع المغول حتى يستعيد قوته، ثم يستأنف الحرب ضدهم. وواته الفرصة لشن الحرب من جديد على المغول، فقد توفي جنكيز خان، وعقب وفاته انسحاب القوات المغولية الرئيسية التي تحتل أقاليم الدولة الخوارزمية إلى مواطنها الأصلية فعبر نهر السند سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م وقصد إيران وظل يقاتل المغول حتى ضعفت ووهنت قوته وفر من أمامهم، وظلوا يتعقبونه حتى قتل في كردستان سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١ م.

لما غادر جلال الدين منكبرتي الهند أمن السلطان أتمش على دولته من الخطر الخوارزمي، وما قد يسفر عنه من هجوم المغول على بلاده، لكنه لم يكذب نفسه الصعداء من جراء هذه الأزمة حتى واجه أموراً داخلية تمس وحدة دولته ومن أبرز

هذه الأمور خروج غياث الدين الخلجي - والى البنغال من قبله - عليه وأعلن استقلاله عن دهلي، وأقام الخطبة باسمه، ونقش اسمه على السكه، وتلقب بألقاب الملوك، وقوى أمره حتى امتد نفوذه على جاينكر وكمروب وترهوت وجور إلى الشرق من دهلي.

عون السلطان أتمش على سحق محاولة الخلجي الاستقلالية عن دولته، وسار على رأس جيش قوى إلى البنغال، ولما رأى الأمير الخلجي عدم استطاعته الوقوف في وجه سلطان دهلي أعلن عودته إلى الولاء والطاعة له، وتعهد بدفع الجزية المقررة عليه، إلا أنه لم يكن صادقاً في تعهده، بل كان يزعم انتظار فرصة أخرى تتيح له العودة إلى الاستقلال بولايته، فلما ابتعد السلطان أتمش عن البنغال، عاد وأعلن الاستقلال وسار إلى بهار واستولى عليها، غير أنه لم يهنأ بهذا الاستقلال طويلاً، إذ سار إليه " ناصر محمد شاه " - وإلى " أوده " Oudh من قبل أبيه السلطان أتمش وهاجم البنغال، وأوقع الهزيمة بالخلجي وأنصاره، وأعاد سيطرة دهلي على إقليم البنغال.

على أن الأمور لم تستتب في إمبراطورية الهند الإسلامية بعد عودة البنغال إلى سيطرة الحكومة المركزية في دهلي، ذلك أن قائداً آخر انتقض على السلطان دهلي، وهو ناصر الدين قباجة، وكان أتمش قد طرده من لاهور بعد أن حاول الاستقلال بها على دهلي، فبسط سيطرته على بعض بلدان السند، لكن جلال الدين منكبرتي اشتبك معه، وانتزع منه أوكا والمملتان، ولما انسحب السلطان الخوارزمي من الهند عاد قباجة وسيطر على هذه البلاد، وحكمها مستقلاً عن سلطان دهلي، فسار إليه شمس الدين أتمش، بينما اتجه وإليه على لاهور لنجدته وهزمه بالقرب من بهكر Bhakkar، وظل يتبعه، حتى سقط في نهر السند وغرق وهو يحاول عبوره فراراً من خصمه. بشاور التقى بجيش جييال البدى يتكون من اثني عشر ألفاً من المشاة معها ثلاثمائة من الفيلة فنشب القتال بين الفريقين، هزم الهنود وقتل منهم كثيرون، وأسر جييال ومعه جماعة من أهله وعشيرته، وغنم

المسلمون مغانم كثيرة، واستولوا على عدد من البلدان. ولما وضعت هذه الحرب أوزارها، وحطت على الظهور أثقالها، وافق السلطان محمود على إطلاق سراح جييال بعد أن افتدى نفسه بمال كثير وعدد كبير من فيلة الحرب، ولم يستطع الأمير الهندوكى بعد أن أطلق سراحه أن يبقى على قيد الحياة بعد أن لحقه الذل والعار، فألقى بنفسه فى النار فاحترق فى شوال سنة ٣٩٢هـ / ١٠٠١ م.

ثم سار السلطان محمود نحو الهند وانتصر على أهلها ثم قصد الملتان وهو مركز مشهور للحجاج الهنود، وقد وصف الأصبخري صنم البراهمة فى الملتان فقال: إن أهل الهند يعظمون هذا الصنم ويحجون إليه من أقاصى بلدان الهند، ويتقربون إلى الصنم فى كل سنة بمال عظيم ينفق على بلد الصنم والمتعلقين به، وصورته على خلة الإنسان متربع على كرسة من جص وآجر، والصنم قد ألبس جميع بدنه جلدا، لا يتبين من جثته إلا عيناه، فمنهم من يزعم أن جسده خشب، ومنهم من يزعم أنه من غير الخشب إلا أنه لا يترك بدنه ينكشف، وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل ذهب، متربع على ذلك الكرسي، قد جعل ذراعية على ركبتيه، وقد قبض أصابع كل يديه كأنما يحسب أربعة.

لما قصد السلطان محمود الملتان، غزا " بهاطية " - جنوب بلاد البنجاب - وصاحبها يسمى " بحيزا " - وهى مدينة حصينة عالية السور، يحيط بها خندق عظيم فامتنع صاحبها بها، ولما شدد المسلمون عليه الحصار، وأرك ضعفه ووهنه أمام القوات الغزنوية أخذ جماعة ثقاته واعتصم بالجبال المجاورة، فسير إليه السلطان الغزنوى فرقة من جيشه باغتته على غرة وأنزلت به الهزيمة، ودخلت بهاطية فى حوزة محمود بن سبتكتين، وأقام بها حتى أصلح أمورها ورتب قواعدها، ودعا أهلها إلى الإسلام واستخلص بها من يعلم من أسلم من أهلها تعاليم الدين الحنيف.

وفى العام التالى قصد السلطان محمود مدينة الملتان نفسها وانتصر وهو فى طريقه إليها على أنديال بن جييال الذى رفض مرور القوات الإسلامية من بلاده ووصلت القوات الغزنوية الملتان واستولت عليها ولاذ صاحبها بالفرار.

اتجه السلطان محمود بعد ذلك إلى قلعة كواكير فاستولى عليها وأحرق أصنامها. وأعتصم وتحصن صاحبها في قلعة منيعة فحاصره السلطان الغزنوي، وضيق عليه الحصار وما لبث أن صالحه وعاد إلى خراسان لإنقاذها من غارات الترك وعهد إلى نواسه شاه حفيد جيبال الذي أعتنق الإسلام ودخل في طاعة السلطان الغزنوي بأن ينوب عنه في حكم بلاد الهند الغزنوية، لكن نواسه ضاه لم يكن مخلصا لغزنة، وانتهز فرصة ابتعاد محمود بن سبكتكين عن بلاد الهند، وارتد عن الإسلام، ومالاً أهل الكفر والطغيان، فلما علم محمود بذلك أسرع إلى بلاد الهند، ففر نواسه شاه من بين يديه، واستعاد السلطان محمود تلك الولاية، وأعادها إلى الإسلام، واستخلف عليها رجلا من ثقاته.

لما رأى أمراء الهند انتصارات السلطان محمود الغزنوي فلا بلادهم وتهديده لاستقلالهم عقدوا العزم على الاتحاد والوقوف يدا واحدة أمام الخطر الغزنوي الزاحف على بلادهم، لذلك حشدوا جيوشهم بأرض البنجاب في حماس بالغ، واشتبكوا مع القوات الغزنوية بقيادة السلطان محمود الذي حمل عليهم حملة لم يستطيعوا الصمود إزاءها، ففر أمراؤهم، ولم يستطع جنودهم الثبات أمام ضربات الغزنويين القوية، فلاذ من نجا بالفرار، واستولى السلطان محمود على عتاد وذخائر وكنوز الجيوش الهندية، ولم يكتف بذلك، بل أرسل بعض قواته في أثر فلول العدو المهزومة فلحقت بإبرهمن بال أنديال في قلعة بهيم - وهي جبل عال - وكان الهنود جعلوها مخزنا لسنمهم الأعظم، ينقلون إليها أنواع الذخائر، ونفيس الجواهر منذ سنين طوال، تقربا إلى هذا الصنم، فحاصر القلعة الجند الغزنوي، وضيقوا على من بها الحصار حتى وهنوا واستسلموا وفتحوا باب الحصن، وملك المسلمون القلعة، وحصلوا منها من نفيس الجواهر ما لا يحد ومن الدراهم تسعين ألف درهم، ومن الأواني الذهبية والفضية العلية الكثير، وكان ذلك سنة ٣٩٨هـ / ١٠٠٧ م.

وفى سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م قام السلطان محمود بغزوة أخرى إلى بلاد الهند فهاجم تارين، واستولى عليها، وحكم أصنامها، ولما رأى صاحب تارين عدم استطاعته الوقوف فى وجه السلطان محمود عرض عليه الدخول فى طاعته وإرسال عدد من الفيلة ومال عظيم وألف رجل من عسكره إليه كل عام. فأجابه السلطان محمود إلى طلبه " وتتابع القوافل بين ديار خراسان وبلاد الهند فى ضمان الأمان وجوار الحيطه والإحسان ".

بلغت فتوحات السلطان محمود فى بلاد حدا لم تبلغه رايات الإسلام المنصورة قبلا، ودخل فى دين الله أفواج عديدة من أهل الهند، ومع ذلك لم يتوقف السلطان محمود الغزنوى عن سياسته فى مواصلة ضم المزيد من البلاد الهندية فسار على رأس جيش كبير على ناردین، فسقط فى يد صاحبها، لذلك أوى هو وجنده إلى جبل عال صعب المرتقى ضيق المسلك، لعله من بأس الجند الغزنوى وكتب إلى قومه يدعوهم إلى الوقوف إلى جانبه، فكثر جمعه، وعظمت قوته ودخل مع المسلمين فى معركة دارت فيها الدائرة عليه، وقتل من جنده كثير، وغنم المسلمون أموالهم ودوابهم، وفتح المسلمون ناردین فتحا طرزوا به شعائر الإسلام، ووجدوا فى بيت كبير صنما قيل: أنه بنى منذ أربعين ألف سنة دمره السلطان محمود.

حرص السلطان محمود على الوقوف فى وجه أمراء البلدان الهندية الذى يحاولون النيل من سلطانه فيها، ففى سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م سار السلطان محمود إلى " ثانير " لإخضاع صاحبها الذى تمدى فى الفكر والطغیان والعناد للمسلمين، فلقى فى طريقة أودية وعرة المسالك وقفاراً فسيحة قليلة الماء قاسى جنده فى قطعها مشقة بالغة وحمل الجند الغزنوى على أهل ثانير جملة أدت إلى هزيمتهم، وغنم المسلمون ما معهم من أموال وفيلة، وعادوا إلى غزنة ظافرين. وترتب على هذا الانتصار أن دان للمسلمين إقليم البنجاب وأصبح الطريق إلى سهول الهند ممهداً أمامهم.

كان من أثر الانتصارات الرائعة التي أحرزها السلطان محمود في بلاد الهند والغنائم التي حصل عليها جيشه المظفر، أن كان جنده كثيرا ما يتركون وراءهم أواني الفضة لثقلها أكفاء بما كانوا يحملون من ذهب كثير وجواهر. والمعروف أن أواني المعابد الهندية، وأكثر الآنية التي تزرع بها دور الأغنياء لم تكن في الغالب إلا من الذهب الخالص، لذلك قدم على السلطان محمود من المتوعة عشرون ألف مقاتل من بلاد ما وراء النهر وغيرها من البلاد، ففوى بهم، واعتزم غزو كشمير المجاورة لممتلكاته الهندية، ولما بلغ بقواته بلاد الهند خشى أمراؤها باسمه، فأرسلوا رسلا إليه يبذلون الطاعة والولاء له، ولما بلغ مشارف كشمير أتاه صاحبها وأسلم على يديه، وواصل السلطان الغزنوى زحفه، وفي طريقه استولى على الولايات الفسيحة والحصون المنيعة حتى بلغ حصن " هودب " فاستسلم صاحبه للسلطان محمود، ودخل هو وقومه في الإسلام، وسار عنه السلطان الغزنوى إلى قلعة " كلجند "، والطريق إليها غياض ملتفة لا يمكن اجتيازها إلا بشق الأنفس، وكان صاحبها كما يقول العتبي من أعيان الهند وشياطينهم، فسير جيشه إلى أطراف تلك الغياض كي يمنع المسلمين من اجتيازها، ولكن الجيش الغزنوى أحبط محاولة النيل منه، وقد ألحق بالعدوة خسارة فادحة، وعمد " كليجند " إلى زوجته فقتلها، ثم قتل نفسه بعدها، وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه، وسار محمود إلى بيت الأصنام المشهورة بهذه البلاد به خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر وفيها من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألفا وثلاثمائة مثقال فأخذ السلطان الغزنوى كل ذلك وأحرق الباقي.

لم يكتف السلطان محمود بما حققه من انتصارات، إنما واصل سيره إلى قنوج، فغادرها راجيال - صاحبها - فاستولى عليها محمود وعلى قلاعها وأعمالها، ثم سار إلى قلعة البراهمة، ودار قتال بين الغزنويين وبين أهلها، دارت فيه الدائرة على الهنود، ولم ينج منهم إلا الشريد، ثم توجه إلى قلعة " آسى "، ولما لم يستطع " جنديبال " مواجهة القوات الغزنوية، لاذ بالفرار، وعلى ذلك

امتلك محمود الغزنوى حصنه، ثم صار إلى قلعة " شروة "، ولم يستطع صاحبها أيضا الثبات أمام القوات الغزنوية، وقتل أكثر جنده، وغنم المسلمون ما معه من أموال وخيل، وعاد محمود بن سبكتكين إلى غزنة ظافرا، وأنفق ما حصل عليه من هذه الغزوة من مال وفير في تشييد مسجد كبير في غزنة.

على أن ملوك الهند لم يستسلموا لما لحقهم من هزيمة، وسقوط بلادهم لبلدة تلو الأخرى في أيدي الغزنويين، بل عولوا على التخلص من نفوذ وسيطرة غزنة، وقد تزعم هذه الحركة الاستقلالية " بيذا " ملك كجوراهة - والتف حوله ملوك الهند، غير أن راجيال فاجأ حلفاءه وخرج عليهم، وعاد إلى الولاء للدولة الغزنوية فباغته ملك كجوراهة وقتله، فازدادت قوته ورأى فيه ملوك الهند خير من يقودهم في معركة تحرير بلادهم من سيطرة الغزنويين، لكن السلطان محمود ابن سبكتكين لم يقف مكتوف اليدين إزاء هذا الخطر الداهم الذي يهدد دولته في الهند، بل سار سنة ٤٠٩هـ / ١٠١٨م على رأس جيش كبير إلى بلاد الهند، عبر نهر الكنج، والتقى بالقوات المتحالفة. لقد كان لظهور السلطان محمود في الميدان أثر كبير على أعدائه، فأخذهم الهلع والفرع، ولم تعن عنهم كثرتهم شيئا، إذ انقضت عليهم القوات الغزنوية، وألحقوا بهم الهزيمة، ولما رأى ملوك الهند عدم جدوى التصدي للسلطان الغزنوى، وأرسلوا رسلهم إليه، يبذلون الطاعة والإتاوة، تقل منهم محمود الصلح، وسار في أثر بيذا، والتقى به في موقعه كبيرة نصر الله فيها المسلمين على أعدائهم، وغنموا أموالهم وسلاحهم واقتفوا فلول المنهزمين، بواغتهم في الغياض والآجام، وأكثروا فيهم القتل والأسر.

تتابعت غزوات وانتصارات السلطان محمود في بلاد الهند، واتسعت أملاك الدولة الغزنوية في هذه البلاد، وعظمت هيته في نفوس أهلها، وتوقفوا عن مقاومة النفوذ الغزنوى، على أن معظم غزوات السلطان محمود حدثت سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٥م إذ فتح عدة حصون ومدن واستولى على الصنم المعروف بسومنا، وهو أعظم أصنامهم يحجون إليه كل ليلة خسوف، ويعتقد الهنود أن

الأرواح إذا فارقت الأحياء اجتمعت فيه، فينعلها فيمن يشاء، وكانوا يحملون إليه نفائس الجواهر، ويعطون سدنته المال الوفير، وله وقف يزيد على عشرة آلاف قرية، يقد إليه البراهمة لعبادته، وإقامة الحفلات الدينية على بابه، ويعتقد الهنود أن السلطان محمود فى غزواته كلما حطم صنما، يعتقدون أن سومنات غير راض عنهم ولو أنه راض لأهلك من قصده بسوء، ويعتقدون أن هذا الصنم يحيى ويميت، وأنه إذا شاء أبرأ من جميع العلل، ومن لم يصادف من أهل الهند انتعاشا احتج بالذنب وقال: إنه لم يخلص له الطاعة، ولم يستحق منه الإجابة، ولا يوجد فى بلاد الهند على تباعد أقطارها وتفاوت أديانها ملك ولا سوقة إلا قدم لهذا الصنم ما عز عليه من أموال وذخائر.

لم يهاجم محمود الغزنوى سومنات لتدمير أو الاستيلاء على ما فيه من أموال كما يدعى بعض المؤرخين، ولكن لأن سومنات كان أخطر مراكز المقاومة والعدوان الهندوكى فى وجه الزحف الإسلامى، ومهما يكن من أمر فلقد سار السلطان محمود على رأس جيش كبير سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٥م فاقتحم صحراء جرداء قاحلة متوامية الأطراف هى صحراء " الثأر " - أكبر صحروات الهند - فلما اجتاز هذه الصحراء، رأى طرفها حصونا مشحونة بالرجال ففتحها ودمر أصنامها، وحصل منها على الماء والميرة اللازمتين لرجالها، وسار إلى " أنهلواره " ففر صاحبها منها، واحتتمى بحصن له، فاستولى محمود على المدينة وسار إلى سومنات ودمر فى طريقة عددا من الحصون فيها كثير من الأوثان فيما يبدو - حجابا ونقبا لسومنات - حسب اعتقاد الهنود - فقاتل من بها، وفتحها، وحطم أصنامها وسار إلى سومنات، وقضى على كل مقاومة اعترضت طريق الوصول إليه، ولما بلغ حصن سومنات قاتل من به، وأسرعوا إلى صنمهم سومنات ليقانلوا عنه، وفعلا قاتلوا على بابه بعنف وضراوة، وتضرع الهنود إلى صنمهم لعله ينصرهم، وحمل الجند الغزنوبى عليهم حملة أخذت الكثير منهم، وحطم السلطان محمود الصنم سومنات وأحرق بعضه، وأخذ بعضه إلى غزنة، وجعله عبته مسد غزنة الجامع.

غير أن بعض ملوك الهند قد أغضبهم ما حاق بمعبودهم الأكبر فأعدوا العدة لمقاومة السلطان محمود، فخرج صاحب " أنهلواره " وقصد قلعة " كترهه " - قرب سومنات - ولما نعى إلى علمه أن السلطان محمود قصده، فر على بلاده، ما قصد السلطان الغزنوى المنصورة وكان صاحبها قد ارتد عن الإسلام، وأعد العدة لمحاربة السلطان محمود - فسار السلطان الغزنوى إلى المنصورة، واشتبك مع صاحبها وهزمه، وأخضعه لنفوذه، ثم سار على بهاطبة، فأطاعه أهلها ودانوا له بالولاء، وعاد إلى غزنة سنة ٤١٧هـ / م .

أعجب محمود بجمال إقليم " جوجرات " ، وارتاح إلى مناخه، حتى أنه فكر فى الإقامة فيه، واستخلاف ابنه مسعود على غزنة لولا اعتراض قادته، ومهما يكن من أمر فإنه يمكن اعتبار محمود الغزنوى سلطانا هنديا خالصا، فتح إقليم البنجاب، ونشر الإسلام فى ربوع الهند، وفتح طريقا سلكه بعده كثيرون . وقنع خلفاؤه بعد أن فقدوا أملاكهم فى فارس وأفغانستان بالاستقرار فى إقليم البنجاب ولم تكن غاية محمود من غزواته فى بلاد الهند جمع الأموال - كما يدعى بعض المؤرخين - حقيقة أن محمود غنم الكثير من غنم الكثير من غزواته، لكن هدفه كان أولا وقبل كل عليه نشر الإسلام، وتحطيم الأصنام، بدليل أنه رفض ما عرضه عليه الهنادكه من افتداء صنم السومنات بالأموال الطائلة، وقال: إنه يؤثر أن يصفه من يأتى بعده بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه بأنه بائع أوثان وعلى ذلك يمكن القول بكل ثقة بأن محمود الغزنوى كان غازيا مجاهدا، أخذ على عاتقه نشر الإسلام وبلغ فى فتوحه " إلى حيث لم تبلغه فى الإسلام رأيه، ولم تقل به قط سورة ولا آية، فدحض عنها أجناس الشرك وبنى بها مساجد وجوامع، وأقام بدلا من بيوت الأصنام مساجد الإسلام، ومن مشاهد البهتان معاهد التوحيد والإيمان " .

واصل مسعود بن محمود الغزنوى سياسة أبيه فى المحافظة على أملاك الدولة الغزنوية فى بلاد الهند، ضم المزيد من الأراضى الهندية إلى الدولة

الغزنوية، وأقر أحمد بن ينالتكين على بلاد الهند الغزنوية، وقد قام هذا الوالى بالاستيلاء على " منارس " من ولاية الكنج التى لم تبلغها جيوش الإسلام قبلا .

قوى شأن أحمد بن بنالتكين فى بلاد الهند، وحدثته نفسه بالخروج على الدولة الغزنوية، لكن السلطان مسعود تصدى له وتخلص منه .

وعلى الرغم من أن السلاجقة كانوا يشكلون خطرا جسيما على الدولة الغزنوية فى فى عهد السلطان مسعود إلا أن هذا السلطان لم يتقاعس عن مواصلة الفتوح فى بلاد الهند ولم يستمع إلى تحذير رجال دولته بالبقاء فى غزنة حتى يكون قريبا من السلاجقة، فسار إلى بلاد الهند سنة ٤٢٩هـ - ١٠٣٧م لتحقيق حلمه القديم وهو الاستيلاء على قلعة " هانس " وكانت تسمى " بالقلعة العذراء " ، لأن أحدا لم يستطع فتحها من قبل . واستولى على هذا الحصن الهندوكى الكبير ثم زحف إلى " منارس " عند الشمال الغربى من دهلى، ففر أهلها إلى الغابات المجاورة مما يسر للسلطان مسعود أمر الاستيلاء على هذه البلاد .

على أن جهود السلطان مسعود فى بلاد الهند يسرت للسلاجقة تحقيق أطماعهم فى إقليم خراسان، واستولوا على بعض بلدان خراسان، وتطور الأمر فى الدولة الغزنوية إلى أسوأ من ذلك، فقد هزم السلاجقة السلطان مسعود فى داندانقان سنة ٤٣٢هـ - ١٠٤٠ م .

ولما رأى السلطان الغزنوى ضعف قوته، قرر الرحيل إلى الهند حتى يجمع الجموع ويعود إلى غزو السلاجقة، واسترداد خراسان، لكنه قتل فى الطريق إلى الهند، فخلفه ابنه مودود، وسار على سياسة أبيه فى المحافظه على أملاك الدولة الغزنوية فى الهند، فتصدى لأخيه مجدود إلى ولى إقليم البنجاب منذ عهد أبيه، وكان من أثر ثورة مجدود أن تشجع بعض أمراء الهنادكة وتحالفوا، وأعلنوا الاستقلال عن الدولة الغزنوية، وزحفوا لاهور، لكن الجند الغزنوى ردهم على أعقابهم، وعادت إلى المسلمين هيبتهم فى شمال شبه القارة الهندية .

ولما ولى السلطان إبراهيم بن مسعود الحكم . أعاد إلى الدولة الغزنوية هيبتها ونظم أمورها، وأقر الأمور في هندوستان، ولما توفى امتد النفوذ السلجوقي إلى الدولة الغزنوية، فواتت الفرصة الأمراء الهنود لمحاولة الانفصال عن الدولة الغزنوية لكن السلطان بهرام شاة أدحص محاولتهم، وقضى على الفتن التي حدثت في البنجاب والملتان، ورد عصبة الأمراء الهنادكة عن لاهور، وكانت الآمال قد بعثت في نفوسهم من جديد لطرد الغزاة من بلادهم، وهكذا استطاع بهرام شاة أن يحافظ على النفوذ الغزنوي في بلاد الهند، ويثبت أقدام الدولة الغزنوية فيها .

ولما ضعفت الدولة الغزنوية لجأ سلاطينها إلى ولايتهم في بلاد الهند للاعتصام بها أو الاستغاثة بأهلها لرد الغزاة الطامعين في غزنة - حاضرة ملكهم - فلما ولى السلطنة " خسرو شاه " لجأ إلى الهند على أثر اقتحام قبائل التركمان لحاضره دولته، كما انتهز الغور فرصة الفوضى التي عمت الدولة الغزنوية المتداعية، فانقضوا على غزنة وأعملوا فيها الخراب والدمار . وقضى آخر ملوك الدولة الغزنوية أيامه الباقية في لاهور ونفاقم خطر الغور، واشتد ساعدتهم فاستعاد زعيمهم غزنة من التركمان، وظلوا يطاردون السلطان الغزنوي في بلاد الهند حتى قبضوا عليه، وبذلك انتهت الدولة الغزنوية التي يرجع إليها الفضل في توطيد أقدام المسلمين في أرض الهند، ونشر الإسلام في تلك الديار .

والواقع أن حملات الغزنويين في بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقرا لهم يعتبر بدء حكم المسلمين الحقيقي في هذه البلاد، ذلك أن ملوك الغور الذين ورثوا الدولة الغزنوية تولوا سلطنة دهلي، ونشروا نقود المسلمين في أرجاء بلاد الهند الشمالية قاطبة .

## نتائج الفتوحات الغزوية في بلاد الهند

لاشك أن الإسلام انتشر بين الهنود نتيجة غزوات سلاطين بنى سبكتكين ودخل الهنود في الإسلام عن طوع واختيار. وحقيقة ساهم التجار المسلمون بدور كبير قبل أن يعمل الغزنويين في بلاد الهند على نشر الإسلام، وبنو مساجد في بعض مدن الهند، كما أن حكومة الملتان الإسلامية كان لها السيادة في بلاد السند منذ الفتح العربي في عهد بنى أمية، وكان لها نصيب في نشر الإسلام في هذه البلاد. ولكن ينبغي أن نؤكد أن السلاطين الغزنويين وخصوصا محمود بن سبكتكين كان لهم تأثير كبير على الهنادكة حتى أن جموعا غفيرة منهم أقبلوا على الهنادكة حتى أن جموعا غفيرة منهم أقبلوا على اعتناق الإسلام.

انتشر الإسلام في بلاد الهند نتيجة لانتصارات راياته فيها ففي سنة ٤١٠هـ أحرز السلطان محمود انتصارات رائعة على " هرداتا " - أحد الملوك الهند - فوافق على اعتناق الإسلام. وتقدم إلى السلطان الغزنوي مع عشرة آلاف رجل، وأعلنوا رغبتهم في التحول إلى الإسلام، ونبذ عباده الأصنام، ومما لا شك فيه أن بعض الهنود تركوا عباده الأوثان واعتنقوا الإسلام تقريبا لحكامهم الجدد.

ولقى الإسلام ترحيبا كبيرا من الطوائف الفقيرة الذين كان حكامهم الآريون يبنذونهم ويحتكرونهم وينقصون من شأنهم، فأعلى الإسلام - دين المساواة - منزلتهم ورفع من شأنهم.

كذلك انتشر الإسلام بين الهنود عن طريق الفقهاء والوعاظ ودروسهم والعلماء والمنصوفة ورحلاتهم، ومن أبرز وأشهر هؤلاء الشيخ إسماعيل وكان من أهل بخارى، وعرف بثقافته الدينية والدينية. وقد قدم إلى لاهور سنة ٣٩٦هـ - ١٠٠٥م وظل يدعو الناس إلى الإسلام ويعلمهم شرائعه، وقد وفد عليه كثير من أهل الهند للاستماع إلى مواعظه، وسرعان ما هدى الله الكثير من الناس إلى الإسلام على يديه.

ولما كان الغزنويين سنيين متشددين ، فقد اعتنق الهنود الإسلام على المذهب السنى ، وحذوا حذو غزاتهم فى تعصبهم وتزمتهم . وكذلك عرف أهل الهند اللغة الفارسية عن الغزنويين ، والمعروف أن هذه اللغة نمت وازدهرت فى بلاط سبكتكين فى غزنه ، كذلك وجد المتصوفون من الفرس والترك فى بلاد الهند خير موئل يلجئون إليه من بلادهم المضطربة ، ولقيت الصوفية ترحيبا من أهل الهند الذين يميلون إليها بطبيعتهم . كذلك اثر الترك فى الهنود ، والهنود فى الترك ، وأخذ كل منهما عن الآخر ، إذا نقل الترك إلى الهند الثقافة الفارسية ومظاهر الحياة الركية والفارسية ، وبهذا انتشرت فى المجتمع الإسلامى بالهند اللغة الفارسية - لغة الثقافة فى ذلك العصر - واللغة الأوردية التى هيا خليط من الهندية والعربية والفارسية والتركية ، ولم تنتشر اللغة وبالتالى لم تزدهر الثقافة العربية بالهند ازدهارها فى الأقاليم والدول الإسلامية الأخرى ، وساعد على هذا أن بعض الشيوخ والعلماء الذين وفدوا على الهند وكانوا من علماء ما وراء النهر ، وهؤلاء كانوا أتباع مذهب أبى حنيفة يعتمدون على كتب فقهاء هذا المذهب ، كما كانوا شغوفين بعلم اليونان القديمة والثقافة الفارسية ، وبهذا اصطبغت الثقافة الإسلامية بالهند بهذه الصفات الثلاث ، ولم تقم على أساس قوى من الثقافة العربية ، ونشأ فريق من المولدين يمثل حضارة إسلامية ، مزيجا من الحضارات التركية والفارسية والهندية ، وينعم بالتسامح الإسلامى ، ينبذ التفرقة التى كانت من أبرز خصائص المجتمع الهندى من قبل ، وظهر مفكرون يهاجمون الديانة البرهمنية ، واحتم الهنادكة عقائد المسلمين ، كما أن المسلمين استفادوا من فلسفة الهند ، وتقدم علمائهم فى علم الفلك .

ولقد تأثرت الحياة الاجتماعية بالترك ، وتجلت ذلك فى انتشار الحجاب بين النساء ، وتخلص المنبوذون من قيود النظام الطبقي وساهموا بحرية فى ميادين الحياة المختلفة من سياسية واقتصادية ، واقتبس الهنود على المسلمين أنظمتهم الإدارية والمالية والقضائية ، وشهد الأدب الفارسى ازدهارا زاد منه رحيل أدباء فارس إلى الهند ، وأصبحت الفارسية لغة التأليف والكتابة للمسلمين وغير المسلمين ، واستفاد

المسلمون من السنسكريتية، وترجموا عنها إلى الفارسية كما ترجموا إليها، وفي ميدان الفن استفاد المسلمون من الهنود والهنود من المسلمين، وتجلّى ذلك في المساجد والعباد.

تجمعت عوامل متعددة أدت على ضعف الدولة الغزنوية وانهارها في آخر الأمر، ومن أبرز هذه العوامل المحاولات المتكررة التي بذلها ولاة الأقاليم في الدولة الغزنوية للاستقلال بالولايات التي يحكمونها، ولم تكن هذه الركعات الانفصالية هي عوامل ضعف الدولة الغزنوية فقط، بل أن أمراء آل سبكتكين أيضا قاموا بدور كبير في تدهور شأن بيتهم العريق، فقد حارب بعضهم بعضا حول الوصول إلى السيادة والحكم، وحاول بعضهم الاستقلال ببعض أقاليم الدولة الغزنوية بل استعان بعضهم على بعض بأعداء دولتهم المتربصين للنيل منها.

ومن أكبر العوامل التي عجلت بانهيار الدولة الغزنوية ظهور الأتراك السلاجقة وارتفاع شأنهم وسعيهم إلى توسيع ممتلكاتهم على حساب الدولة الغزنافية، كمان أن الغور خرجوا من عزلتهم الجبلية، وعملوا على مد نفوذهم في ما وراء حصونهم، وكان خير ميدان لتنفيذ سياستهم بلدان الدولة الغزنافية التي أخذت عوامل الضعف والانحلال تنال منها حتى أنهكت قوامها، ولم تعد تستطيع مقاومه أعدائها الأشداء.

واصل الغور سياساتهم التوسعية على حساب الدولة الغزنافية المتداعية حتى استولوا على غزنه، وسقطت لاهور آخر معاقل الغزنوفين سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م في أيدي الغور وبسقوطها زالت الدولة الغزنافية وانتهت أيامها.

## ٢- الغوريون

تقع بلاد الغور في أفغانستان الحالية بين هراة و غزنة، وقامت دولة مستقلة في هذه المنطقة تتخذ من قيروزكوه عاصمة لها، وكان الغور لا يدينون بالإسلام حتى غزاهم السلطان الغزنوي محمود بن سبكتكين سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠ م.

شكل الغور خطرا جسيما على الدولة الغزنوية في عهد السلطان محمود بن سبكتكين، ذلك أنهم دأبوا على شن الغارات على رعايا هذا السلطان، واتخذوا من وعورة بلادهم وصعوبة مسالكها معصما يقيهم بأسه لما كثرت غارات الغور على بلدان الدولة الغزنوية أنف السلطان محمود أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه، وهم على هذا الحال من الكفر والفسوق والعصيان، وعول على إخضاعهم، وأعد جيشا كبيرا سار على رأسه إلى بلاد الغور سنة ٤٠١هـ / ١٠١٠م والتقى بجحافلهم في معركة عنيفة، ومزقهم فيها كل ممزق، وأغلق الطرق المؤدية إلى بلادهم، بينما سار الجيش الغزنوي داخل بلاد الغور، وألتقى بأميرهم في مدينة "أهنكران"، وحدث اشتباك عنيف بين الفريقين تفوق فيه جند الغور، لذلك أمر محمود بن سبكتكين جنده أن يولوا الأدبار على سبيل الاستدراك، وأنسحب الجند الغزنوي، فظن الغور أن ذلك هزيمة، وساروا في أثر جيش السلطان محمود حتى ابتعدوا عن بلادهم، فواتت الفرصة الجند الغزنوي للانقضاض على الغور، وفعلا باغتهم، ووضعوا السيوف فيهم، وقتلوا كثيرا منهم، وشتتوا شملهم، ووقع أمير الغور أسيرا في أيدي الغزنويين، وأمتلك السلطان محمود قلاع الغور وحصونهم. ومن ثم دخلت بلاد الغور في حوزة سلطان غزنة..

ولما كان الغور حتى ذلك الحين على غير دين الإسلام، فقد حرص محمود بن سبكتكين على نشر الإسلام، بينهم فاستخلف عليهم الفقهاء يعلمونهم الدين وشرائعه.

رفض أمير الغور أن يقع أسيرا في أيدي غريمه، لذلك أثار الانتحار، وأبقى السلطان محمود حكم الغور في أيدي بيتهم الحاكم، ولكن في ظل السيادة الغزنافية، وارتفع شأن أمراء الغور في الدولة الغزنافية حتى أنهم ارتبطوا بصلة النسب ببيت سبكتكين، لكنهم رغم ذلك تطلعوا، لكنهم رغم ذلك تطلعوا إلى الاستقلال عن غزنة، وأخذوا يتحينون الفرص المناسبة لتحقيق سياستهم، وفعلا تطورت الأمور في صالحهم، ذلك أن الدولة الغزنافية انشغلت في دفع خطر السلاجقة الزاحفين على إقليم خراسان فأعد الغور عدتهم للاستقلال، وتحقيق أطماعهم التوسعية على حساب الدولة الغزنافية، ولما أنهك السلاجقة قوى سلطان غزنة، واستولوا على الكثير من ممتلكاته، سار محمد بن الحسين - أمير الغور - إلى غزنة بغية الاستيلاء عليها سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م لكن السلطان الغزنوي بهرام شاه أحبط محاولته وهزم نده، وقبض عليه وقتله.

استنكر الغور قتل السلطان الغزنوي لأمرهم، وعولوا على الانتقام من بهرام شاه، وأعد سوري بن الحسين - أمير الغور الجديد - العدة لذلك، فقوى من أمر جنده، وسار على رأسهم إلى غزنة بقصد الاستيلاء عليها، والأخذ بثأر أخيه، ولما اقترب سوري من غزنة بجحافة، رأى بهرام شاه أنه لا يستطيع التصدي للغور الأقوياء، فقادر حاضره دولته، وذهب إلى الهند الغزنافية ليجمع منها جيشا قويا، ويعود إلى غزنة لتحريرها من قبضة الغور.

أما الغور بقيادة سوري، فقد استولوا على غزنة، لكن جند غزنة وأهلها ساءهم احتلال الغور لمدينتهم، وانتزعهم الحكم من بيت سبكتكين، وظلوا يتحينون الفرص للتخلص من الغور، وواتتهم الفرصة حينما عاد السلطان بهرام شاه إلى غزنة على رأس جيش كبير لاسترداد حاضرة ملكه من الغاصبين، ووقف جند غزنة وأهلها إلى جانب بهرام شاه في الاشتباك الذي حدث بينه وبين أمير الغور الذي اغتصب أعز قطعة من مملكته، وقد انتهى القتال بهزيمة سوري، وقبض بهرام شاه عليه وقتله وولى جنده الأدبار إلى بلادهم لا يلوون على شيء

وعاد بهرام شاه إلى حاضرة ملكه ظافرا متصرا سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م وأبهج أهلها بمقدمة، وبقهر الغزاة الطامعين.

لما قتل سورى خلفه علاء الدين الحسين بن الحسين فى حكم الغور ولم يتغاض عن قتل أخيه سورى وهزيمة جنده، وطردهم من غزنة، بل عول على الانتقام من السلطان الغزنوى وأهل غزنة لتنكيلهم بجند الغور وأميرهم سورى، فسار على رأس جيش كبير إلى غزنة، واستولى عليها، وولى السلطان الغزنوى بهرام شاه هاربا على بعض المجاورة ليستجمع قوته، ويعود إلى حاضر دولته. أما علاء الدين الحسين بن الحسين، فقد أقر الأمور فى غزنة، وعاد إلى بلاده بعد أن استخلف على غزنة أخاه سيف الدين، وأمره بإقامة الخطبة له فى هذه المدينة، كما طلب منه أن يسير فى الناس سيرة حسنة، ويحكم بالعدل. وفعلا نفذ سيف الدين تعليمات أخيه، فأحسن إلى أهل غزنة وأجزل على أعيانها الصلوات النفسية، وخلق عليهم خلعا سنوية حتى تطيب نفوسهم ويخلصوا للعهد الجديد.

على أن هذه السياسة لم تؤت ثمارها، إذ كان أهل غزنة ما يزالون على ولائهم وإخلاصهم ما يزالون على ولائهم وإخلاصهم لبيت سبكتين، ويعارضون حكم ما يزالون على ولائهم وإخلاصهم لبيت سبكتين، ويعارضون حكم الغور لهم، وأعدوا العدة للتخلص منهم، فلما كان شتاء سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م وانقطع الطريق بينغزنة وبلاد الغور بعد أن غطاه الثلج، أمن أهل غزنة عدم وصول النجيدات العسكرية من بلاد الغور إلى بلدهم، ونادوا بشعار بهرام شاه، وأرسلوا إليه يطلبون منه العودة إلى حاضرة ملكه، وتحريرهم من نير الغور المغتصبين للحكم من أصحابه الشرعيين، فاستجاب بهرام شاه لنداء أهل غزنة، وسار على رأس جيش كبير إلى غزنة، ولما اقترب منها قبض أهل غزنة على سيف الدين - الحاكم الغورى - ومهدوا لبهرام شاه أمر دخول غزنة، فدخلها ونكل بالغور، وبذلك استرد بهرام شاه غزنة للمرة الثانية. على أن بهرام شاه لم يلبث أن توفى وولى بعده ابنه خسروشاه وكان علاء الدين الحسين بن الحسين - أمير الغور - قد

أعد العدة للسير إلى غزنة واستعادتها والانتقام من أهلها الذين قتلوا رجاله، فلما علم خسرو شاه بزحف أمير الغور على غزنة أسقط في يده وخاف العاقبة وغادر غزنة وقصد لاهور واستقر بها ونقل إليها حكومته وجعلها لدولته بدلا من غزنة. أما أمير الغور فقد استرد غزنة سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م ولم ينس هذا الأمير موقف أهل غزنة العدائي من قومه فألحق بهم ويلاته، وأباحها لجنده ثلاثة أيام كاملة لقي خلالها أهلها سوء العذاب، ولم يكتف بذلك بل دمر حاضره بنى سبكتين بما في ذلك المنشآت التي أنشأها سلاطين غزنة العظام حتى سماه أهل غزنة «محرق العالم» على أنه أصلح أمور غزنة بعد أن أسرف في الانتقام من أهلها ورأب الصدع، ونقل الكثير من أهل غزنة ممن يخشى بأسهم إلى بلاده وأسكنهم بعض قلاعها، وبذلك كفل سياسته هذه أضعاف مقاومة سكان غزنة لحكم الغور وبقائها في حوزته.

قويت دولة الغور في عهد أميرها علاء الدين الحسين بن الحسين وتطلع إلى توسيع رقعة دولته فسار على رأس جيش كبير إلى خراسان وعاث جنده فسادا وتخريبا في أعمال هراة - وسار إلى بلخ وحاصرها وضيق عليها الحصار حتى استسلمت له وضمها إلى حوزته، على أنه لم يحظ بحكمها طويلا فقد سار إليه السلطان السلجوقي «سنجر» ليستعيد بلخ من الغور ويمنعهم من التعرض لخراسان والتقى السلطان السلجوقي بالأمير الغورى فى قتال عنيف هزم فيه الغور ووقع أميرهم أسيرا فى أيدي السلاجقة، على أن السلطان «سنجر» لم يلبث أن عفا عنه وخلع عليه وأعادته إلى «فيروزكوه».

وأصل أمير الغور سياسته الرامية إلى ضم مزيد من البلاد إلى دولته على الرغم من الهزيمة التى لحقت به، ونظم إدارة دولته واستعمل العمال والأمراء على البلاد، وكان ابنا أخيه وهما غياث الدين محمد بن سام وشهاب الدين محمد فيمن استعمل على بلد من بلاد الغور اسمه «سنجه». فما الناس إليهما وانتشر ذكرهما فسعى بهما من يحسدهما إلى عمهما علاء الدين وقال إنهما يريدان

الوثوب بك وقتلك والاستيلاء على الملك، فأرسل عمهما يستدعيهما إليه وأوقعا به الهزيمة، عندئذ جأهرا بعصيان عمهما وقطعا خطبته فتوجه إليهما علاء الدين وحدث اشتباك بين الفريقين انهزم فيه علاء الدين ووقع أسيرا في أيدي ابني أخيه عقد صلح بين الأمير الغورى والأخوين بمقتضاه تزوج غياث الدين من ابنة عمه علاء الدين وجعله ولي عهده.

لما توفى علاء الدين الحسين بن الحسين سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م خلفه غياث الدين محمد، وأقيمت الخطبة له فى غزنة، لكن الغور لم يلبثوا أن فقدوا غزنة، ذلك أن الغز طمعوا فيها بعد موت علاء الدين الحسين، واستولوا عليها، وطرردوا الغور منها، وبقيت غزنة فى أيديهم خمس عشرة سنة ساموا خلالها أهلها سوء العذاب كعادتهم فى كل بلد ملكوه.

وفى تلك الفترة كان غياث الدين محمد - أمير الغور - يعد العدة، ويجمع الجيوش لاسترداد غزنة من مغتصبها الغز.

سار غياث الدين إلى غزنة فى صحبة أخيه شهاب الدين، واشتبك الغور مع الغز فى معركة ألحقوا بهم الهزيمة، وطردهم من غزنة، واستردوها، وأحسن غياث الدين أهلها.

لم يكتف غياث الدين محمد أمير الغور - بامتلاك غزنة، بل عقد العزم على امتلاك البقية الباقية من الدولة الغزنوية لتوسيع دولته الناشئة، واستئصال شأفة آل سبكتين حتى يضمن لدولته - التى قامت على أنقاض الدولة الغزنوية - الأمن والاستقرار، فأرسل جيشا استولى على بلدان الغزنيين غير الهندية، وضمها إلى دولته. ثم عبر شهاب الدين الغورى نهر السند معتزما الاستيلاء على ممتلكات الغزنويين فى الهند واتجه إلى لاهور - قاعدة آخر سلاطين سبكتكتين - وفى طريقه إليها استولى على ممتلكات الغزنويين الهندية ثم حاصر لاهور - آخر معاقل الغزنويين - فى جميع عظيم وحشد كبير. حاصرها وضيق عليها الحصار، وأرسل شهاب الدين إلى خسروشاه وأهل لاهور يعرض عليها الأمان على أنفسهم

وأهليهم وأموالهم على أن ييسروا أمر استيلائه على لاهور، وحذرهم عاقبة التعرض لقواته، لكن خسرو شاه أهل لاهور أصورا على مقاومة الغور، وبذلوا في سبيل ذلك الأنفس والأموال، غير أن مقاومتهم للغور اعتراها الضعف.

وبذلك قضى السلطان أتمش على خصومه منافسيه، واكتسب حكمة الصفة الشرعية حينما أرسل إليه الخليفة العباسي المستنصر بالله تقليداً بحكم دولة الإسلام في الهند سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م، ولقبه بـ«ناصر أمير المؤمنين، حامى الإيمان» وقدم السلطان الخليفة في الخطبة والسكة على نفسه، وأبرز كذلك الألقاب التي منحها له الخليفة على العملة الفضية العريضة التي سكها، ومما لاشك فيه أن اعتراف الخليفة بسلطان دهلي أكسبه موحبة وتقديراً واحترام رعاياه المسلمين.

وكان لتأييد الخليفة للسلطان أتمش أثر كبير في تقوية دولته فخرج يقضى على ما تبقى من خصومه، ولم يكن هؤلاء الخصوم قادة من الترك، بل كانوا بعض راجات الهند الذين انتهزوا فرصة انشغال السلطان بمشاكله الداخلية، واستطاعوا الاستقلال ببلدانهم، فسار إليهم أتمش وساعد «رانثمار» وكذلك استراد ماندوار Maddawor في جبال السوالك. وفي سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١ هاجم جواليار Guwalior وحاصر قلعتها شهرا حتى سيطر عليها، ثم سار إلى ملاوى واستردها كذلك، واستولى عليها Bhlsa وأجان Ajjan وعاد إلى الاشتباك مع الخلعيين الذي حاولوا من جديد الاستقلال بالبنغال وتقوية نفوذهم فيها وخصوصا بعد وفاة ناصر الدين محمد شاه - وإلى البنغال من قبل أبيه سلطان دهلي.

توفي أتمش سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م بعد أن وطد نفوذه وسلطان دولة المماليك في الهند، وخاض في سبيل ذلك حروبا كثيرة - كما ذكرنا - ضد خصومه الذين حاولوا انتزاع بعض بلدان دولته، ولذلك يمكن القول بأن أتمش هو المؤسس الحقيقي لسلطنة دهلي المملوكية.

ولم تمنع الغزوات المتكررة التي خاضها أتمش ضد أعدائه من إصلاح أحوال بلاده، فأعاد تنظيم الجهاز الإدارة، وهو من هذه الزاوية يعتبر رجل دولة

من الطراز الأول، وقد كان الجهاز الإدارى من قبله ينقصه التنظيم. وحدد لكل إدارة أو مصلحة اختصاصها، ورسم لها الخطة التى تدير عليها. وبذلك سارت الأعمال الحكومية فى عهده بدقة. كذلك حرص السلطان أَلتمش على إقرار العدالة فى بلاده، ورفع الظلم عن رعاياه وبأشرف بنفسه أمر إقرار العدل ودفع الظلم. لتحقيق ذلك أمر كل صاحب مظلمة بلبس ثوب مصبوغ، يميزه عن لباس الهند الأبيض، فكان متى جلس للناس أو ركب، ورأى أحدا ارتدى ثوبا مصبوغا، استدعاء إليه، ونظر فى شكواه ورفع عنه مظلمته، لكى يتيح الفرصة لأصحاب المظالم برفع شكواهم إليه، وأثناء وجوده فى داخل قصره، أقام على باب قصره تماثيل لأسدين موضوعين على برجين - وفى أعناقهما سسلتان من الحديد فيهما جرس كبير، يدقه المتظلم، وحيثئذ يسمح السلطان بمثوله بين يديه، ويستمع عليه وينظر فى أمره.

وعنى أَلتمش بتشجيع العلوم والآداب وأنفق أموالا كثيرة فى كتابة نسخ كثيرة من القرآن الكريم حتى تكون فى متناول الناس لقراءتها والاستفادة منها، وأسس العديد من المدارس وزين بلاطه بالشعراء والعلماء، وجعل عاصمته مركزا هاما للعلوم والآداب، كذلك أولى الفن المعمارى عناية كبيرة فأتم بناء مسجد قطب الدين فى دهلى، وشيد مسجدا آخر فى آجمير.

بوفاة أَلتمش يكون قد بقى من عمر سلطنة المماليك فى دهلى ثلاثون سنة أثقلت المشاكل كاهلها فى خلالها حتى عصفت فى النهاية بذلك الصرح الضخم الذى بدل أَلتمش جهودا كبيرة فى سبيل تشييده. ومن الأمور التى أضعفت هذه الدولة عجز السلاطين الذين خلفوا أَلتمش عن إدارة شئون الدولة، والمنازعات الشديدة التى قامت بين كبار رجال الدولة حول الاستئثار بالسلطة.

وتفضيل ذلك أن أَلتمش عهد إلى ابنته رضيه بالحكم من بعده، ذلك أن ابنه الأكبر ناصر الدين محمد توفى فى البنغال، وحاول أَلتمش تدريب ابنته على إدارة شئون الدولة، وعهد إليها مباشرة سلطانه أثناء غيابه عن دهلى تمهيدا لتوليها

السلطنة من بعده . على أن كبار رجال الدولة اعترضوا على تولية رضية الحكم بعد وفاة والدها، ودبروا خلعتها، واستدعوا آخاها فيروز من لاهور، وطلبوا منه أن يتولى سلطنة دهلي بدلا من أخيه، فسار فيروز إلى دهلي، ومكنه رجال الدولة من تولي الحكم بعد أن عزلوا أخته رضية . على أن هذه السلطان الجديد لم يستطع إدارة أمور الدولة بحكمة وكفاءة، بل انصرف إلى اللهو والعبث، وترك مقاليد الأمور في يد أمه شاه ترکان، وهي امرأة حقود وضيعة النشأة، وسارت سيرة سيئة في الحكم، لذلك حدثت في الدولة الكثير من القلاقل والثورات والفتن، وعول حكام الملتان و لاهور وهانسی وبدون Budaun وأورده على إنهاء هذا الحكم الفاسد وتحركوا إلى دهلي فعلا . ففر فيروز من دهلي، وتبعه جنده، والتقى بالخارجين عليه بالقرب من العاصمة، لأنه لم يستطع الاشتباك معهم في قتال، ذلك أن جنده انفضوا من حوله، وعادوا إلى دهلي، وأعلنوا خلع فيروز، وتولية رضية، وقبض على فيروز وزج به في السجن .

على أن هذا الحل لم يرض أمراء الولايات المتجهين إلى دهلي إذ كانوا يعتزمون تولية أحد الأمراء الحكم، وحاصروا دهلي فعلا وقطعوا عنها سبل الاتصال بالولايات التابعة لها، لكن السلطانة رضية أظهرت مقدرة وكفاءة في سحق هؤلاء المناوئين . فعلى الرغم من أنها كانت في قلة من الجند، فإنها استطاعت إضعاف أعدائها وهزيمتهم، وردهم على أعقابهم خاسرين، وأصبحت سلطنة الإمبراطورية بلا منازع، وعاد الأمن والهدوء إلى ربوع دولتها .

وحرصت رضية على أن تبلغ مبلغ الرجال في أعمالها وتصرفاتها، حتى تضي على نفسها الرهبة أمام الناس، فتزيت بزى الرجال، وفادت الجيوش بنفسها ضد أعدائها، وشهداها الناس وهي تركب الفيل على رأس جيشها، إلا أنها أغضبت أمراء الدولة الترك الذين رفع ألتمش من شأنهم، وقربهم إليه، وأسند إليهم الأمور الهامة في الدولة، وأبعدتهم عن التدخل في شئون الحكم، لأنها كانت تدرك مقدار معارضتهم لحكمها، وسوء نواياهم نحوها .

كذلك أثارت رضية المعارضة ضدها حينما رفعت من شأن رجل حبشى يعمل أميراً للخليل فى بلاطها يسمى جلال الدين ياقوت، وأسندت إليه قيادة الجيش، بل همت به، وتزوجت منه، فدبر الأمراء الترك مؤامرة للتخلص منها، أو على الأقل تقليص نفوذها، وقادها أيتيكين Aitigin - أمير حاجب - لكن رضية أحببت المؤامرة، ولم تنته متاعب رضية عند هذا الحد، إذ أعلن حاكم البنجاب الثورة، فسحقت رديه تدمره. أما اختيار الدين ألتونيا Altunia - حاكم بهاتندا - فقد رفع هو الآخر راية العصيان، وبينما هى بعيدة عن العاصمة، إذا بالأمراء الترك فى دهلى يعلنون عزلها، ويولون منها «معز الدين بهرام بن ألتمش».

لما ولى «بهرام شاه» سلطنة دهلى لم يستطع الأفراد بالحكم بل اضطر على الخضوع للأمراء الترك، والسير وفق أهوائهم وأسند أمر الملك كله إلى واحد منهم هو وزيره اختيار الدين أيتيكين الذى قبض على زمام الأمور فى الدولة دون السلطان ولم يلبث أن غضب السلطان من وزيره الذى جعله اسماً فقط فدبر السلطان مؤامرة لاغتياله، وأدى نجاحها إلى استرداد سلطانه.

لكن بهرام شاه لم يستمتع بالأفراد بالحكم طويلاً، ذلك أن «بدر الدين سنقر» - أمير حاجب - سيطر على أمور الدولة، كذلك تعرض السلطان للمؤامرة أخرى تستهدف خلعه، فقد انتهز ألتونيا - حاكم بهاتندا - فرصة مقتل أيتيكين، وعول على المسير إلى دهلى، والتربع على عرش السلطنة، ولتحقيق ذلك أفرج عن أسيرته - رضية - وتزوج منها، ورأى أن ذلك يعطيه الحق فى تحقيق أطماعه الرامية إلى الاستحواذ على السلطنة، وتقدم الاثنان إلى دهلى، لكن القبائل الكهكرية هاجمت جيوش ألتونيا وشتت شملهم، وعثروا على رضية تستظل بظل شجرة فاغتالوها. وبذلك فشلت هذه المؤامرة على أن رضية كانت سلطانة عادلة على جانب كبير من الكفاءة والمقدرة، شجعت العلوم والآداب، وكانت تتجول فى الأسواق فى زى الرجال، وتجلس إلى الناس، وتستمع إلى شكواهم، ومما يجدر ذكره أن رضية عاصرت شجرة الدر - ملكة فرنسا - عن مصر فى الحملة الصليبية

السابعة، وكان زوجها الملك الصالح أيوب قد توفى أثناء معركة المنصورة، فقبضت شجرة الدر على زمام الأمور في مصر حتى قدم توران شاه بن الملك الصالح، وخلف أباه في الملك.

لم تستتب الأمور في دهلي بإحباط كؤامرة أمير بهاتندا، ورضية، ذلك أن أمير حاجب ظل قابضا على زمام الأمور في الدولة وبينما تسير الدولة في طريق الاضطراب واجهت خطراً آخر ليس من الداخل، ولكن من الخارج، ذلك هو خطر المغول الذين هاجموا لاهور سنة ١٢٤١م، فقاد أمير حاجب جيشاً إلى لاهور لوقف تقدم المغول، غير أنه لم يلبث أن توجس خفية من السلطان إذ رأى أن ابتعاده عن العاصمة سيؤدى إلى تأمر السلطان وحاشيته ورجاله ضده، وعزله عن منصبه، ومنعه من دول دهلي، وانضم إليه الجيش في إعلان التمرد والعصيان على السلطان، فأرسل إليه بهرام شاه رسول من رجال الدين ليحثه هو والجند على ترك الفتنة والمضى قدما في طريق الجهاد في سبيل الله، لكن الشيخ الرسول لم يقيم بالواجب الذي كلفه به السلطان، بل انضم إلى الثوار، وعادوا جميعاً إلى دهلي، وتركوا المغول يهاجمون لاهور.

أعد السلطان العدة للدفاع عن عاصمة ملكه، لكن رجال أمير حاجب داخل دهلي وساعدوا المهاجمين على الاستيلاء على العاصمة، وقبضوا على بهرام شاه سنة ١٢٤٢م، وولوا بدلا منه علاء الدين مسعود - حفيد ألتمش - وكان عمره لا يتجاوز السادسة عشرة.

لم يكن علاء الدين مسعود أسعد حظا من سابقة، فقد فوض أمور دولته إلى قطب الدين حسين، وجعله نائبا ووزيرا له، لكنه استبد بالسلطة دونه، وأسند الوظائف الإدارية الهامة في الدولة إلى أعوانه وأنصاره على وزيره وقتله، وعهد إلى نجم الدين أبي بكر بمنصب نائب السلطان، وعين «بلين» في منصب أمير حاجب.

واجه بلبن صعبا جسيمة فى ضبط أمور الدولة، فقد كثرت الفتن والقلاقل بها، إذ حاول الأمراء الهنادكة الاستقلال عن دهلى وحاول أمراء الولايات كذلك الانفصال عن الحكومة المركزية وحارب بعضهم بعضا، وتعرضت البلاد كذلك لخطر المغول الزاحف إليها وبلغ من ضعف السلطة المركزية أن أمراء الولايات القريبة استنجدوا بالمغول لدحر كل محاولة قد تقوم بها لاستعادة سيطرتها على ولاياتهم.

على أن بلبن لم يستطع أن يمضى فى تنفيذ سياسته الرامية إلى إعادة الهدوء والسكينة إلى الدولة بسبب تعرضه لمؤامرة تستهدف إقصاءه عن الحكم، ذلك أن الهنادكة عولوا على إقصاء العناصر التركية عن إدارة أمور الدولة، والحلول حلهم، وقادة هذه الحركة عماد الدين ريحان الذى ولى منصب وكيل الدار، وأفلح فى إقصاء بلبن ورجاله الترك عن الحكم. وبذلك حل النفوذ الهندوكى محل النفوذ التركى فى سلطنة المماليك بدهلى.

على أن الهنادكة لم يستمتعوا طويلا بإدارة شؤون حكومة دهلى ذلك أن الأمراء الترك ساءهم اعتصاب الهنادكة بقيادة ريحان السلطة فى دهلى، وعقدوا العزم على إعادة بلبن، وانضم إليه الكثيرون من حكام الولايات الترك، وطلبوا من السلطان إعادة بلبن وعزل ريحان، ولما لم يستجب السلطان لرغبتهم تعاضدوا وتحالفوا على تنفيذ رغبتهم بالقوة، فخرج السلطان من عاصمته دهلى لسحق تمرد الثوار لكن الثائرين هزموا جيش السلطان ودخلوا دهلى، وأعادوا بلبن إلى الوزارة، وعزل ريحان سنة ١٢٥٤م، وأحسن أهالى العاصمة الهندية استقباله بعد غياب دام عامين.

واجه بلبن مشاكل متعددة لإقرار الأمور فى الدولة، فالبلاد مضطربة، والثورات متعددة فى الإمبراطورية، وخصوصا قبائل المواتى Mewatis وأصبحت البلاد تعيش فى فوضى شاملة، لذلك كان على بلبن استعادة هيبة ونفوذ حكومة

دهلى والقضاء على الفتن فى الولايات التابعة لها، وقد فوض إليه السلطان كل هذه الشئون بينما انصرف إلى مجالسة العلماء والدرائش .

أثبت بلبن كفاءة ومقدرة فى إدارة شئون الدولة، وإعادة الهدوء إليها، فقضى على الفتن الداخلية، وأخضع الكهكرية وغيرها من القبائل الثائرة المثيرة للشغب والفوضى، وزحف إلى الدواب Doab، وأخضع الأمراء الهنادكة الشائرين بها، ما أعاد أودة والسند إلى الولاء والطاعة لحكومة دهلى .

على أن أبرز مواقف هذا الرجل البطولية تجلت فى مقاومته لغزو المغول للهند سنة ١٢٤٥، فقد هاجموا السند، وضيقوا الحصار على حصن أوكا فتصدى فهم بلبن واشتبك معهم فى قتال مرير وأوقع بهم هزيمة كبيرة وردهم على أعقابهم خاسرين وأمنت بلاد الهند الغربية من خطر المغول، وعادت سيطرة دهلى على هذه المنطقة .

توفى ناصر الدين محمود بعد حكم عشرين عاما، وكان عادلا كريما زاهدا متدينا، يرمى العلوم والآداب، وقد عهد إلى أبى عمر عثمان منهاج السراج بشغل وظيفة كبيرة فى بلاطه، ووضع هذا العالم مؤلا كبيرا أهده للسلطان، أسماه «طبقات ناصرى» ومكافأة كبيرة على هذا الجهد الكبير، ومما يجدر ذكره أن ناصر الدين عاش عيشه الزهد، وكان يقتات من عمل يده، إذ كان ينسخ المصاحف ويبيعهها، ويغضى بما يرد إليه من هذا العمل نفقاته الخاصة، كذلك لم يتخذ خدما فى بيته، إنما كانت زوجته تباشر الشئون المنزلية بنفسها بما فى ذلك إعداد الطعام .

ذكرنا أن غياث الدين بلبن ارتفع إلى أعلى المناصب فى إمبراطورية المماليك فى عهد ناصر الدين محمود، ولعب دورا هاما فى تاريخ سلطنة دلهى المملوكية حتى أن المؤرخين يذكرون أن تاريخ ناصر الدين محمود هو فى حقيقته حلقة من تاريخ بلبن، ولم يكن لدى السلطان ناصر الدين محمود أبناء ذكور، وتزوج بلبن من ابنة ناصر الدين محمود، الأمر الذى يسر له أمر تولية السلطنة بعد وفاة صهره سنة ١٢٦٦م وكان قد جاوز الستين من العمر .

ينتمى بلبن إلى قبيلة تركية، كان أبوه من شيوخها، ووقع بلبن في أسر المغول، واشتراه الخواجة جمال الدين في البصرة، وبيع في دهلى إلى ألتمش. ظهرت شجاعته ومقدرته في سلك الجندية، فأدخله ألتمش في جماعة حرسه، ولما وليت رضية السلطنة، أسندت إليه منصب أمير الصيد، وأدرك بهرام شاه شجاعته وإقدامه، فولاه بعض الولايات فأحسن إدارتها وأعاد إليها الهدوء والاستقرار، وراجت فيها الزراعة، وتحسن الأحوال الاقتصادية، ثم ولاه ناصر الدين محمود منصب الوزارة ونيابة السلطنة كما رأينا.

وواجه بلبن بعد توليته السلطنة نفس المشاكل التي واجهها في عهد ناصر الدين محمود، فالبلاذ مضطربة، والمغول عادوا إلى تهديد الحدود، وكان على بلبن أن يؤمن دولته من الأخطار الخارجية والمشاكل الداخلية، فبدأ بتقوية السلطة المركزية وأعاد الهيبة إلى بلاطه وحكومته، وذلك بأن جعل بلاطه قويا فخما كما كان أيام ملوك الفرس القدامى، وكان مجلسه يتسم بطابع الجد، وأعاد تنظيم جيشه وتدريبه على أحسن نظام. وأضعف من شأنه القادة المماليك - موالى ألتمش - وكانوا لا ينقطعون عن تدبير المؤامرات والدسائس التي تستهدف تقوية نفوذهم في الدولة على حساب السلطان.

كذلك حرص بلبن على تنظيم إدارة الدولة، وأعاد الأمن والنظام إلى ربوعها، ولتحقيق ذلك أعد جهازا قويا للجاسوسية، يحيطه علما بكل أخبار الإدارات والمصالح الحكومية، ويكتبون له تقارير عن سير حكام الولايات وسائر الموظفين، وهؤلاء الجواسيس يرلقبون كل مصالح الدولة بما في ذلك الجيش وبلاط السلطان، حتى أبنائه، وكان هناك جواسيس لمراقبة سير الجواسيس في عملهم، وكان الجاسوس يتعرض لأشد أنواع العقاب إذا تهاون في عمله أو في تأدية الواجب المكلف به ولم يلتزم بالدقة في جمع الأخبار، أو لا يصدق في تبليغها، وبلغ من حرصه على إقرار العدالة، ومنع الظلم أن أحدا كان لا يجرؤ على إيذاء خدمه ومماليكه.

بعد أن أعاد بلبن تنظيم الدولة، وأعاد إلى حكومة دهلى هيبتها، اتجه على القضاء على الفتن الداخلية فى الدولة، فضرب بيد من حديد على أهل مواتى، وكان قد أخضعهم أثناء وزارته، فلما ولى السلطنة، قطعوا الطريق، وسرقوا المسافرين وألحقوا بهم الضرر والأذى وخصوصا فى بهار، ونهبوا القرى وقتلوا الأبرياء واقترب خطرهم وشرهم من العاصمة دهلى فخرج بلبن من دهلى، وسار على رأس جيشه لإخضاعهم وهاجمهم هجوما عنيفا، وما زال يتعقبهم حتى شتت شملهم، وأمر بتطهير البلاد من الغابات والأدغال التى كانوا يحتمون بها، وما زال يتعقبهم حتى استأصل شأفتهم، وقتل قائدهم. رأى ضرورة المحافظة على الأمن والسلام فى الدولة، فأقام الحصون فى مختلف البلاد، يقيم فيها شرطة لحماية الناس من عدوان اللصوص وقطاع الطريق، وحول المناطق التى استأصل منها الغابات إلى أراضى زراعية، يقيم فيها جند لحراستها من غيث العابثين، وبذلك استتب الأمن والنظام فى الدولة.

كذلك تعرضت سلطنة المماليك فى الهند لخطر آخر من جانب الهندوس فى دواب ذلك أنهم قطعوا الطريق بين دهلى والبنغال فقاومهم حتى ضعفوا ووهنوا، وقبض عليهم وأسرههم.

وواجه بلبن مشكلة أخرى من جانب المماليك الذين اعترضوا توليته الحكم وسعوا إلى الخلاص منه، وكان سلطانهم قد قوى فى عهد ألتمش وخلفائه الذين منحوهم الإقطاعات الكبيرة، فطردهم بلبن من الخدمة العسكرية، وأمعن فى عقابهم، وقتل كثيرا منهم، وتخلص من هذه الفئة كلية. وبهذه الجهود أصبح بلبن سلطانا قويا مهابا يرمى جانبه رجال الدولة، ويخشون بأسه.

لم يكد بلبن ينتهى من مشاكله الداخلية، حتى واجه خطرا خارجيا جسيما، ذلك أن المغول عادوا من جديد إلى تهديد الهند بعد أن زحفوا إلى بلاد العراق بقيادة هولاكوخان، واستولوا على بغداد - حاضرة بنى العباس - وقتلوا الخليفة المستعصم سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٤م، واعتزم المغول غزو الهند بعد أن سمعوا عن

ثروتها، فأعد بلبن العدة لصد الأعداء عن بلاده، وبقي في دهلى لا يغادرها وترك لقواده أمر تعقب الخارجين على سلطانه، حتى لا تتعرض العاصمة لخطر المغول، ولا تقاسى ما قاسته بغداد من ويلات، وأعاد بناء القلاع على الحدود بسبب غزوات المغول السابقة، وأقام تحصينات جديدة مزودة بالجند والسلاح، كما زود جيشه بالأسلحة والمعدات، وأسند القيادات العسكرية إلى رجال أكفاء وعين ابنه الكفاء الشجاع محمد حاكما على الملتان، ووضع ابنه الآخر بغراخان على حراسه سمته وسنام.

وكان لخطته الدفاعية أثرها الكبير في درء خطر المغول عن ديار الهند، فحين هاجمها سنة ١٢٧٩، تعقبهم محمد وهزمهم، ودفع خطرهم عن بلاد الهند. وبذلك سلمت الممالك في الهند من خطر المغول وويلاتهم.

على أن انشغال الحكومة الهندية في الذود عن البلاد أدى إلى بروز مشكلة أخرى داخلية، ذلك أن البنغال بقيادة واليها "طغرل" عادت إلى محاولة الاستقلال عن دهلى، ولقب واليها طغرل نفسه مغيث الدين، وأمر بإقامة الخطبة باسمه، ونقش اسمه على السكة بدلا من بلبن، فأرسل السلطان جيشا بقيادة أمير خان لإخضاع طغرل، وأعدت البنغال إلى الخضوع للحكومة المركزية، لكن طغرل هزم القائد الهندوكى، وغضب بلبن من قائده، وحمله مسئولية الهزيمة التى لحقت به، وحكم عليه بالإعدام، وأرسل جيشا آخر إلى التغال لسحق تمرد طغرل، لكن هذا الجيش لقى مصير سابقة، عندئذ لم ير السلطان بلبن بدا من المسير بنفسه إلى البنغال لإعادته إلى حوزته، وصحبه ابنه بغ راخان، وحينما اقترب السلطان من البنغال أخذ طغرل الجزع والفرع، وفر هو ورجاله إلى الغابات المجاورة شرق البنغال فى جاجنكر، وأرسل السلطان فرقه من الجيش لتعقب المتمردين، وعثروا عليهم فعلا، وشاهدوهم يشربون ويلهون والقبيلة تتجول بين الأشجار، والخيول والمواشى تتغذى على النباتات، فباغتوهم على حين غفلة منهم، وما زالوا بهم حتى أفنوهم عن آخرهم وقتلوا زعيمهم طغرل.

بعد ذلك اتجه السلطان إلى لكهاونتي، وكانت تؤيد طغرل في ثورته ضد دهلي فاختفى أغلب أعيانها خوفا من بطش السلطان، لكن بلبن لم يبرح البلدة إلا بعد أن نكل بالثائرين وبذلك إلى الولاية والطاعة للسلطان بلبن ولكي يضمهم بقاء البنغال على الولاء لدهلي، عهد إلى ابنه بغي راخان بكم البنغال وحكم بغي راخان وأعقابهم البنغال أكثر من نصف قرن.

وجدير بالذكر أن البنغال سببت متاعب كثيرة لحكومة دهلي، فقد حاولت الاستقلال منذ أن حكمها الخليجيون منتهزين فرصة صعوبة المواصلات بين دهلي وبلادهم، فضلا عن بعد المسافة، وانتشار الأوبئة فيها. وبذل ألتمش جهودا كبيرة في إخضاع البنغال وحذا طغرل - كما رثينا - حذو الخليجين في محاولة الاستقلال عن دهلي منتهزا فرصة انشغال السلطان بلبن في مشال الدولة الداخلية والخارجية.

على أن بلبن واجه كارثة أخرى مروعة، فقد توفي ابنه محمد وهو يقاتل المغول، ولم يحتمل صدمة موت ابنه، وتوفي بعدها في سنة ١٢٨٧ بعد حكم دام أربعين سنة.

يعتبر بلبن من أعظم حكام الهند غي تاريخها الوسيط، فقد تغلب على الصعوبات الكبيرة التي واجهته، إذ وقف في وجه الأمراء الهنادكة الذين حاولوا النيل من سلطانه، وقهر العصاة والمفسدين، وتمكن من درء خطر المغول عن البلاد، وأقر الأمن والنظام في ربوع الدولة، واشتد في معاقبة الخارجين على القانون والعدالة واتخذ بنفسه - كما ذكرنا - بلاد مهيبا له مراسم معينة، ورجال يرتدون أزياء معينة ومظاهر خاصة، واتخذ رجالا أكفاء في إدارة شئون الدولة على انه لم يستطع توسيع رقعة دولته لانشغاله طوال حكمه بمشاكل الدولة الداخلية والخارجية، ولم يأل جهدا في سبيل حماية الدين والمحافظة على الشريعة، وإقرار العدالة، وبنا دارا أسماها دار الأمن لرفع المظالم عن رعاياه، وتخفيف أعباء الحياة عليهم، وساوى بين رعاياه المسلمين والهنادكة أمام القانون وإذا كان قد أبعد

الهنداكة فترة ما عن مناصب الدولة الرئيسية، فإنه فعل ذلك بعد أن لمس منهم نزعاتهم الاستقلالية فى وقت تواجه الدولة فيه خطر خارجيا .

ولم يأل بلبن جهدا فى سبيل رعاية الفنون والأدب، وحرص على رفع شأن مجتمعه، فشجع الناس على التحلى بتعاليم الإسلام، وقد كان لعمله هذا أثر كبير على المجتمع الهندى حتى أن المؤرخين يغزون إليه ما يتمتع به الآن المجتمع الهندى من تقاليد رفيعة .

ومما يجدر ذكره أن هذا السلطان أكرم وفادة الشخصيات الإسلامية الكبيرة التى لجأت إلى الهند فرارا من بطش وجور المغول، وكان من بين هؤلاء فريق من بنى العباس ومن أمراء خوارزم وغيرهم، وقد أنزل كل فريق منهم فى حى خاص، سُمى باسمه، مثل محلة عباسى، محلة خوارزمى، محلة ديلمى، محلة سنجر . . الخ .

لما شعر بلبن بدنو أجله عهد إلى ابنه بغراخان الحكم من بعده، لكن بغراخان رفض، وأثر البقاء فى البنغال، لذلك عهد السلطان إلى كيخسرو بن بغراخان بولاية عهده، وتولى كيخسرو السلطة فى دهلى سنة ١٢٨٧، وكان ضعيفا لا يستطيع القيام بأعباء الحكم، فأسند أمور الدولة إلى نظام الدين وكان رجلا طموحا استبد بأمر الدولة دون السلطان، وزين نظام الدين للسلطان الاستمتاع بمباهج الحياة واللهو والعبث، وأسند المناصب الرئيسية فى الدولة إلى رجاله المقربين إليه .

على أن بغراخان - حاكم البنغال - ساء ذلك من علم من استبداد نظام الدين بأمر الدولة دون ابنه السلطان، وعقد معهم لقاء سريا حثه فيه على التخلص من نظام الدين ورجاله واستعادة نفوذهم فى الدولة، لكن الترك لم يمكنوه من ذلك بل عزلوه وولوا بدلا منه كيقباد - أحد أطفاله الصغار - على أن الخليجين لم يمكنوا الترك من الاستبداد بأمر الدولة، فدخلوا دهلى، وأزالوا عنها حكم المماليك .

## ٢- السياسة الداخلية لسلطنة

### دهلي الإسلامية في العهد الخلجي

#### قيام الدولة الخلجية في دهلي:

يرى البعض أن الخلجيين من أصل تركي، على حين يرى آخرون أنهم من أصل أفغاني ويؤكد بارالي أنهم ينسبون إلى قلبج خان - أحد أصحاب جنكيزخان، نزل بجبال الغور بعد هزيمة شاه خوارزم، وحرف اسمه بعد ذلك إلى خلج، وقيل لورثته الخلجيون، وقد اندمجوا في الحياة الأفغانية، واعتنقوا الإسلام في عهد سلاطين بنى سبكتكين، وضم الجيش الغزنوي فرقا منهم ساهمت في فتح الهند.

على أن نشاط الخلجيين اتضح في عهده سلاطين الغور. فحينما ولي قطب الدين أبيك التركماني الهند نيابة عن سلطان الغور، حرص على توسيع رقعة ولايته الجديدة في بلاد الهند، فأسند هذه المهمة إلى قائده محمد بن بختيار الخلجي، فاستولى على بندنبتوري - عاصمة إقليم بهار - وكان يحكمها مولك أسرة بلا، ولم يلبس أن استولى على مملكة بلا بأسرها، وكانت الديانة البوذية سائدة بين سكان هذه المملكة، فحكم القائد الخلجي معابدهم وأصنامهم، ونشر الإسلام بينهم، وانضمت هذه البلاد إلى إمبراطورية الغور.

وأذن قطب الدين أبيك - نائب سلطان الغور في الهند - إلى القائد الخلجي بمواصلة الفتح والتوسع، فاتجه محمد بن بختيار الخلجي إلى نادية - عاصمة البنغال الرغم من قلة عدد جنده، فإنه اقتحم نادية، وكان يحكمها لكمشن سنا من أسرة سنا ٥٩٥هـ/ ١١٩٦م، وفزع الملك الشيخ وجزع، ورأى أن لا قبل له بالغزاة المسلمين، فلاذ بالفرار من عاصمة ملكه، لا يلوى على شيء، وقد يسر ذلك للقائد الخلجي أمر الاستيلاء على نادية - عاصمة البنغال - فضمها إلى مملكة الغور، وأقام الخطبة فيها للسلطان الغوري، وقد مهد سقوط نادية في أيدي الغور السبيل لهم لضم إقليم البنغال بأسره لدولتهم.

لم يكتف محمد بن بختيار الخلجي بما أحرزه من انتصارات رائعة، بل تطلع إلى المسير إلى التبت للاستيلاء على هذه البلاد، ففي سنة ٦١٣هـ/١٢٠٦م اتجه في عشرة آلاف فارس إلى التبت، لكن حملته باءت بالفشل الذريع، وتعرض جنده لأهوال جسام أثناء انسحابهم، ولقى الكثير منهم حتفه في عودتهم إلى "ديفكوت"، ولم يلبث هو كذلك أن توفي.

حرص خلفاء محمد بن بختيار الخلجي على بسط نفوذهم على بعض أقاليم الهند، فلما قامت دولة الماليك في الهند، وولى شمس الدين ألتمش السطنة في دهلي، تعرض لمشاكل داخلية تهدف إلى إطاحته من الحكم، وأثار هذه المشاكل رجال الدولة الذين انتهزوا فرصة الفوضى التي أعقبت وفاة قطب الدين أيك، وقد مهدت هذه المشاكل للخلجيين أمر السيطرة على بهار والبنغال.

على أن الملوك الماليك لم يقفوا مكتوفي الأيدي إزاء نزعات الخلجيين الاستقلالية، فلما غادر جلال الدين منكبرتي بلاد الهند، وزال خطر الخوارزميين عنها، وبالتالي خطر المغول، تفرغ السلطان ألتمش لقمع الحركات الاستقلالية في دولته، ومن أبرزها استقلال غياث الدين الخلجي في البنغال عن دهلي حيث أقام الخطبة باسمه، ونقش اسمه على السكة، وتلقب بألقاب الملوك، وقوى أمره واشتد بأسه وامتد نفوذه على البلاد الواقعة شرقي دهلي.

عول السلطان ألتمش على سحق محاولة الخلجي الاستقلالية، وسار على رأس جيش كبير من البنغال، ولما رأى الأمير الخلجي عدم استطاعته التصديلسلطان دهلي، أعلن عودته إلى الولاء والطاعة ونبذ التمرد والعصيان، وتعهد بالعودة إلى دفع الأموال المقررة عليه، إلا أنه لم يكن صادقاً في تعهده، بل كان يزمع انتهاز فرصة أخرى تتيح له العودة إلى الاستقلال بولايته، فلما انتعد السلطان ألتمش عن البنغال أعلن الاستقلال، وسار إلى بهار، واستولى عليها، غير أنه لم يهنأ بهذا الاستقلال طويلاً، إذ سار إليه ناصر الدين محمد شاه - إلى أودة - من قبل

السلطان أتمش - وهاجم البنغال، وأوقع الهزيمة بالخليج وأنصاره وبذلك عادت البنغال إلى حوزته سلطان دهلى .

لكن الأمير الخليجي لم يستسلم لانتزاع البنغال منه، بل عول على استرداد هذا الإقليم، فلما توفى ناصر الدين محمد شاه - والى البنغال من قبل أبيه سلطان دهلى - عاد إلى البنغال وحكمها .

ضعفت دولة المماليك بعد وفاة السلطان بلبن وقد عهد بالحكم لابنه بغراخان لكن بغراخان أثر البقاء، وأسندت السلطنة إلى كيخسرو بن بغراخان سنة ١٢٧٨م، وكان ضعيفا لا يستطيع القيام بأعباء الحكم، فأسند أمور الدول إلى نظام الدين، وكان رجلا طموحا استبد بأمر الدولة دون السلطان، وزين السلطان أمر الاستمتاع بما فى الحياة الدنيا من مباحج حتى يبعده عن الانشغال بأعباء الحكم، وأسند المناصب الكبيرة فى الدولة إلى رجاله المقربين .

على أن بغراخان - حاكم البنغال - ساءه استبداد نظام الدين بأمر الدولة دون السلطان، وعقد معه لقاء سرىا حثه فيه على التخلص من نظام الدين ورجاله، واستعاده نفوذه فى الدولة، ومباشرة مسئولياته بنفسه، ونفذ السلطان مطالب أبيه وتمكن من التخلص من نظام الدين ورجاله، واسترد نفوذه فى الدولة . لكن السلطان كيخسرو لم ينفرد بالسلطة طويلا فقد تأمر عليه الترك، وعزلوه وولوا بدلا منه كيقباد - أحد أطفاله الصغار - السلطنة حتى يتيسر لهم الاستبداد بالدولة دونه .

استاء الأمراء الخليجيون من استبداد الترك بأمر الدولة، وعولوا على تغيير نظام الحكم فى دهلى، فساروا إليها بقضهم وقضيضهم بقيادة زعيمهم "فيروز" وهزموا القواد الأتراك، وأحدثوا أقبالا فى دهلى أحاحوا فيه بالسلطان الطفل، وأعلنوا فيروز سلطان، ولقب بجلال الدين، وكان ذلك سنة ١٢٩٠م .

ولم يتقبل أهالي دهلى حكم الخلجيين فى بادئ الأمر بالرضا والتأييد، لكثرة ما ألحقه جندهم ببلدهم من الخراب والضمار، وارتكابهم حماقات ذهب ضحيتها الكثيرون. على أن السلطان الخلجى الذى كان فى السبعين من عمره - تمكن بحسن سياسته وعدله ومودته أن يجتذب الناس إلى محبته. وبذلك خضع أهل دهلى للملك الجديد والعهد الجديد، ووفد الناس على السلطان الشيخ زرافات ووحداناً يباعونه ويقدمون له فروض الولاء والطاعة.

\*\*\*

## كياسة السلاطين والخاجيين في توطيد ساطانهم

لم يأل السلاطين الخلجيون جهدا في سبيل سحق حركات التمرد والعصيان، ومنع اندلاع ثورات ضدهم والحيلولة دون حدوث الحركات الاستقلالية والانفصالية في الدولة، وأول هذه الحركات الثورية سنة ١٢٩٠ حينما أعلن جيغو - حاكم إقليم كره - الثورة ضد الحكم الخلجي وهو ابن أخى بلبن وكان يطمع في استعادة عرش دهلي، وقوى أمره واشتد بأسه وكثر أنصاره، وانضم إليه الكثير من الأمراء والراجات وتعاهدوا وتعاضدوا على الوقوف إلى جانبه ضد نظام حكم جلال الدين فيروز شاه وأعلن جيغو الاستقلال عن دهلي، بل أعلن نفسه سلطانا، وتلقب بلقب مضيف الدين، وضرب العملة باسمه وأمر بذكر اسمه في الخطبة، وأعد جيشا كبيرا للزحف إلى دهلي وأملاكها، وإسقاط الحكم الخلجي.

لم يقف السلطان جلال الدين مكتوفى اليدين إزاء هذه الحركة الخطيرة التي تهدف إلى انتزاع الحكم منه، بل عول على إحباطها، فاستخلف في دهلي ابنه الأكبر ولقبه خان الخانات ركن الدين، وسار هو على رأس جيش كبير، يتكون من عشرة آلاف مقاتل وقسمه إلى قسمين، قسم قاد "أركالى خان"، والثاني تحت قيادته هو، وباغت أركالى الأعداء على حين غفلة منه وهزمهم شر هزيمة. غير أن المتمردين لم يهنوا ولم يضعفوا بل أعادوا تنظيم صفوفهم، ودخلوا مع أركالى وجنده في معركة أخرى، وما علم جيغو باقتراب السلطان، أسقط في يده، وترك ميدان القتال ولاذ بالفرار لا يلوى على شيء، غير أن أركالى خان اقتفى أثره، ولجأ جيغو إلى قلعة قريبة من ولايته، واعتصم فيها، فحاصره أركالى، وشدد عليه الحصار، ومنع وصول الأتوات إلى القلعة، حتى استسلم جيغو، ووقع هو وأنصاره في أيدي جيش دهلي، أما السلطان فقد سار إلى كره، وطهر في طريقة البلاد من المتمردين وعناصر الشغب، واستعاد كره، وسيق الأسرى المتمردين مكبلين بالسلاسل والأغلال. على أن السلطان الرحيم أمر بفك قيدهم، وان تكفل لهم وسائل الراحة، وبدلا من أن يحاكمهم بتهمة الخيانة والغدر، عفا عنهم،

وتغضى عن خطاياهم وآثامهم، وشملهم بعنايته ورعايته وعطفه، وحذره قواده من هذا التسامح الذى قد لا يؤدى إلى وقف حركات التمر والعصيان، بل ربما تزيد الثورات اشتعالا فى دولته. ولكن السلطان الشيخ استند فى عفوه وصفحه إلى روح الإسلام التى تدعو على تجنب إراقة دم المسلم، وكان يرى أنه فى شيخوخته يجب عليه أن يختم حياته بالأعمال الطيبة الصالحة. ومهما يكن من أمر فقد أفرج السلطان عن عناصر التمر والفتنة، وأرسل جيحوا إلى الملتان فى ظل حراسه مشددة.

ظهرت حركات معارضة أخرى لحكم الخلقى من بينها حركة دبرها أمراء ونيلاء ألتمش، وتزعمها تاج كوشى، وعقدوا عدة اجتماعات وندوات تحدثوا فيها عن مساوئ الحكم الخلقى وعدم جدارته بتولى زمام الأمور فى الدولة وعدم صلاحية جلال الدين بالذات لعرش سلطنة دهلى، واتفقوا على العمل على إزاحة الخلجيين عن حكم البلاد، ونقل زمام الحكم من جلال الدين إلى تاج الدين كوشى، ودبروا مؤامرة لاغتيال السلطان الخلقى. غير أن تفاصيل هذه المؤامرة نمت إلى علم السلطان، فأرسل إليهم يهددهم ويتوعددهم بسفيهه إن لم يعودوا إلى الولاء والطاعة، ويقنعوا عن التآمر والتمرد فخشوا مغبة عصيانهم، وأرسلوا إليه وفدا يعتذر عما بدر منهم - ويطلب من السلطان العفو والصفح ويعلن عودتهم إلى الولاء والطاعة، عفا السلطان الطيب عنهم. وبذلك أحبط جلال الدين هذه المؤامرة بالطرق السليمة.

وتعرض جلال الدين لمؤامرة أخرى كادت تقضى عليه، ورأس هذه المؤامرة "سيدى مولى" وهو درويش من بلاد فارس، لجأ إلى الهند عقب الغزو المغولى لها، وأقام فى دهلى إبان حكم بلبن، وعاش فيها زهد وتقشى وخشونة، يتبسط فى طعامه ويلبس الخشن من الثياب، ومن الغريب أنه يتعفف عن أموال الناس، فلا يقبل ما يعرض عليه من منح وهبات، ورغم ذلك كان يتفق عن سعة، وبني

خانقاه عظيمة، ووفد عليه الناس من كل مكان بعد أن بلغ صيته الآفاق، وكان يستضيفهم ويكرم وفادتهم، ويدفع هذه النفقات الكبيرة من ماله الخاص، ودهش الناس وأخذتهم الحيرة لعدم معرفتهم مصدر هذه الأموال حتى اعتقد بعضهم أن له صلة بالجن أو معرفة بالسحر.

كثر أتباع هذا الرجل من الصوفية والفقراء والمساكن والنبلاء أيضا، ونظر جلال الدين إليه نظرة شك وريبة فحضر مجلسه متنكرا، وشاهد بنفسه التفاف الناس حوله، وأتضح أن سيدى مولى ليس درويشا ولا متصوفا، وإنما يتخذ من هذا المظهر وسيلة لتحقيق أغراض سياسة، فقد كان بكثير من الاتصال بالأمرء والنبلاء وقواد بلبن المعارضين لحكم جلال الدين، وبلغ من ازدياد نفوذه أن خان الخانات ركن الدين بن جلال الدين أصبح من مريديه، وتدخل الشيخ الدرويش فى النزاع الذى حدث بين ابنى جلال الدين حول ولاية العهد، وحاول كل منهما تقوية مركزه بضم الأنصار والأعوان له، ومن ثم ظهر حزبان فى دهلى، الأول موال لخان، ويضم المناهضين للدرويش، وحرص خان الخانات على أن يخاطب الدرويش، وحرص خان الخانات على أن يخاطب الدرويش بالأبوة حتى يكتسب إلى جانبه أنصار الدرويش.

حرصت الحركات المعارضة للحكم الخلقى على نيل رضا الشيخ الدرويش حتى أن أبناء أمرء العهد البائد تطلعوا إلى الشيخ للوقوف إلى جانبهم فى استعادة نفوذهم، وخلع السلطان الخلقى.

ومهما يكن من أمر فقد دبر هؤلاء المعارضون للحكم الخلقى مؤامرة لاغتيال السلطان جلال الدين وهو ذاهب لصلاة الجمعة فى مسجد دهلى الكبير، وبعدها يعلنون سيدى خليفة ويتزوج من ابنة السلطان ناصر الدين غازى كيلانى، ويحصل على لقب غازة خانة ثم يعين أبناء بلبن فى الوظائف الرئيسية فى الدولة، على أن هذه المؤامرة فشلت فشلا ذريعا، فقد علم السلطان بأنبائها ومخططاتها، وأمر بالقبض على جميع المتآمرين وأجبروا بالعنف والشدة على الاعتراف بتفاصيل

المؤامرة، وأمر السلطان بإعدام المتآمرين على حياته - وعلى رأسهم سيدى مولى، وامر بنفى وجن المتآمرين الآخرين، ولقد كان لمقتل سيدى مولى صدى كبير فى دهلى فقد غضب أنصاره ومريده لمقتله، وبنادوا بالانتقام لمولاهم الذى قتل ومالت شهيدا حسب اعتقادهم. غير أن ثروتهم أخدمت. وبذلك نجا السلطان ودولته من محاولة قلب حكومته.

لم تنته متاعب السلطان الخلقى عند هذا الحد، بل واجه حركة استقلالية عن دولته تزعمها مدينة رانمبهور، وجدير بالذكر أن هذه المدينة كانت قوية التحصين حتى أن الغوريين لم يستطيعوا الاستيلاء عليها، واستطاع ألتامش السيطرة عليها سنة ١٢٢٦م، واستعادها الراجبوتيون فى عهد السلطانة رضية المضطرب، ولما ولى بلبن السلطة استردها، ولكنها عادت إلى الثورة من جديد فى عهد جلال الدين الخلقى. ولم يتغاض هذا السلطان عن هذه الحركة الانفصالية فأنتاب عنه فى دهلى، ابنه أركالى خان وسار هو على رأس جيش كبير لإعادة الأمن والهدوء إلى هذه المدينة فى مارس سنة ١٢٩١م، واجتازت قواته صحراء الثأر القاحلة الموحشة، وقاسى الجند لإعادة المن والهدوء إلى هذه المدينة فى مارس سنة ١٢٩١م، واجتازت قواته صحراء الثأر القاحلة الموحشة، وقاسى الجند فيها ألوان العذاب واهلك العطش والجوع الكثير منهم، وظلوا على الحال عدة شهور أكلوا معظم دوابهم، ومهما يكن من أمر فقد بلغ جلال الدين وجنوده مدينة رانمبهور، وأرسل فرقا استطلاعية لاختبار قوة المدينة وحشد جيشه على حدودها، ورأى السلطان أن يستولى على مدينة غين jhaijn قبل رانمبهور حتى لا يطعن جنده أثناء هجومها على رانمبهور، وباغت الجند الخلقى غين، وألقوا الذعر بى سكانها، وقتلوا الكثير من سكانها، ولم يستطيع راجا هذه البلدة دفع الخليجين عن دياره، وفر من نجا جلال "عين" وضمها إلى حوزته، وأعجبه جمال البلدة وروعة ما فيها من تماثل منقوشة من الحجر أو الخشب فى قصر الراجا، وزار معابد البلدة، وشاهد نقوشها البديعة وتحفها الذهبية والفضية الرائعة، غير أن جلال

الدين أمر بإحراق التماثيل والتحف لأنها ترمز إلى عبادة الأصنام، وأخذ قطعيتين من البرونز من تمثال لبرهاما وأمر بتفتيتها إلى قطع صغيرة، ووزع بعضها بين ضباطه وجنوده وكبار موظفي دولته، وزين ببعض الآخر بوابات مسجد دهلي الكبير.

وبعد أن استولى جلال الدين على غين، أرسل فرقا من جيشه إلى مالوا malwa وحطمت معابدها وعادت محملة بالغنائم والأسلاب. وقد مهدت هذه العمليات الحربية لشن الحرب على رانثمبهور، وإعادتها إلى حوزة دهلي، وكان صاحبها قد أعد جيشا كبيرا لصد هجوم جلال الدين، وانضم إليه عدد كبير من راجات البلاد المجاورة، وتعاضدوا جميعا على صد الجيش الخلدجي، وحصنت المدينة خير تحصين، ولما نعى إلى علم السلطان قوة تحصين البلدة، واستعداد أهلها الكبير للذود عنها ودرء هجمات العدو، خشى إن اشتبك معه أهل رانثمبهور أن يقتل ويجرح الكثير من جنوده المسلمين، وهو كرجل مسلم يحرص على عدم إراقة دم المسلمين الذى يؤدي بالضرورة إلى ترميل النساء، وتيتيم الأطلال، وهو أمر لا يحتمله، ويخشى وقوعه، لذا قرر هذا الشيخ الطيب الرحيم رفع الحصار عن رانثمبهور وأمر بانسحاب لنصيحة قواده ومستشاريه بسوء عاقبة هذا العمل وما ينجم عنه من ضياع هيئته بين سكان هذه البلاد. وفعلا كان لانسحاب جلال الدين أثر كبير فى تشجيع الحركات الانفصالية، فقد استردت غين استقلالها، وخرجت رانثمبهور من هذه المحنة ظافرة منتصرة، وتحقق أملها وحملها فى الانفصال عن دهلي.

ومن أهم الأحداث الداخلية التى شهدتها سلطنة دهلي، تأمر علاء الدين على عمه السلطان جلال الدين، فقد كان هذا الأمير، طموحا يتطلع إلى العرش على الرغم من أن عمه الفسلطان قد أسند ولاية عهده إلى ابنه ركن الدين، وكان علاء الدين قد ولى من قبل عمه حكم إقليم كره سنة ١٢٥٤م، وأسند إليه قيادة بعض الغزوات فى أرجاء الهند كان آخرها الدكن، وأحرز من هذه الغزوة بعض

الانتصارات، وعاد إلى كره محملاً بالغنائم والأسلاب، وحينئذ وافته الفرصة لتدبير مؤامراته ضد السلطان، فأرسل إليه يخادعه ويدعوه إلى زيارته، ويزعم ولاءه ومحبته له، ولم يجد السلطان الشيخ غضاضة في الاستجابة لدعوة ابن أخيه على الرغم من تحذير رجاله له، وسار إلى كره، وافلح علاء الدين في إقناع السلطان بنزع أسلحة جنده منعا لحدوث صدام بين جند كره وحند دهلي، أما علاء فقد أعد جيشه وزوده بالأسلحة والمعدات، وزوده بالخيال والفيلة، وركز جنده في عدة مواضع. ولما وفد السلطان على ابن أخيه، وأدرك سوء نواياه، تأسقظ في يده، وأرك أنه لا محالة هالك، وانصرف إلى قراءة القرآن، هنا أمر علاء الدين بقتل السلطان، ولما نفذت المؤامرة أعلن علاء الدين بقتل السلطان، ولما نفذت المؤامرة أعلن علاء الدين نفسه سلطاناً، وركب جنده الفيلة، ورفعوا رأس جلال الدين على حربة، وتجولوا بها وقد أدى موقف أركالى خان إلى تقوية شأن علاء الدين، وزيادة الضعف والانقسام في جيش دهلي، وبالغ علاء الدين في بذل الأموال والهدايا لأنصاره حتى انضم إليه الكثير من جند ركن الدين، فأسقط في يده، واعتزل العرش، ومهد ذلك لعلاء الدين أمر توليه العرش في دهلي.

دخل علاء الدين دهلي سنة ١٢٩٦م، وأعلن نفسه سلطاناً، وقبض على ركن الدين إبراهيم، وسمل عينيه كما زج بأمه في السجن، واستصفى أموال أصار الحزب الجلالى، ولقب بأبى المظفر السلطان علاء الدنيا والدين محمد شاه خلجى، وضرب العملة باسمه، وأقيمت الخطبة باسمه، وفرض الهدايا على النماس، وأقيمت الزينات السرادقات في كل مكان، وأقبل الناس عليه كل صوب وحب مؤيدين ومبايعين. وبذلك تربع علاء الدين على عرش سلطنة دهلي بعد أن تلخصم عمه وابن عمه، وقوى من شأنه وجذب الأنصار والأتباع له.

لما ولي علاء الدين السلطة، واجه مشاكل داخلية وخارجية معقدة، فبالده هدف لغزوات المغول من الشمال الغربى سنويا، وهذا الغزو يقتصر عادة بالخراب والدمار، واقتطاع أراضى من مملكته، كذلك انتقم أركالى خان - ابن السلطان

جلال الدين - من علاء الدين، فاستقل بإقليم الملتان، وضم إلى حوزته السند والبنجاب، وبذلك اقتطع من سلطنة دهلي بلادا واسعة، وفي السند مملكة الكجرات الغنية ويحكمها الأمير الراجيوتيني وبالقرب من الكجرات تقع ممالك الأمراء الراجيوتيين في صحراء الثار، وكل إمارة مستقلة عن الأخرى، وتحرص على الانفصال عن دهلي، ولم يستطع سلاطين دهلي من قبل إخضاعهم، ومن ناحية أخرى توجد ممالك مثل شيتور وراشمبهور تقف من دهلي موقفا عدائيا. يضاف إلى أن بعض إلى بلدان سلطنة دهلي مثل ملاوى ويوجين لم تتأثر بعد بالحضارة الإسلامية، بل تنتهز الفرصة المواتية لاستقلال عن دهلي، وتقف منها عدائيا عدائيا أما البنغال فولى حكمها ناصر الدين محمود بن بلبن وأعقابه، واستقلوا عن دهلي. وحكم الدؤاب وما جاورها أمراء مستقلون عن دولة الإسلام في الهند. وبذلك ولى علاء الدين السلطنة، في وقت تفككت في الدولة الإسلامية في الدولة الإسلامية في الهند، وانفصل عنها الكثير من أقاليمها.

#### Baghela Ujjain Dhar chittor

ولى علاء الدين السلطنة في وقت كانت في اشد الحاجة إلى رجل دولة مثله، فالسلطان الجديد يختلف عن سلفه جلال الدين فهو يمتاز بقوة البأس، والحزم وحسن التدبير، والكفاءة العسكرية والإدارية، فقبض على زمام الأمور بيد من حديد، وبذل قصارى جهده في إعادة الوحدة إلى دولته، وإنقاذها من الهوة التي تردت فيها، ودرء الخطر الخارجى عنها.

وأبرز أعداء السلطان الجديد، وهم أبناء جلال الدين ونبلاء دهلي، وهؤلاء يعارضون العهد الجديد كما أن الراجات الذين استقلوا عن دهلي في أثناء الاضطرابات التي حدثت في أواخر جلال الدين، وبعد مصرعه من واجبه إعادتهم إلى الولاء والطاعة له، وكان عليه تنظيم إدارة البلاد، وتقوية الحكومة المركزية، وضمن طاعة وولاه القادة العسكريين، والحكام المسلمين في الولايات.

أعد علاء الدين جيشا فى سنة ١٢٩٦ لإخضاع أركالى خان الذى استقل بالملتان وغيرها - وسار هذا الجيش إلى الملتان ولم يستطع أركالى له دفعا بل قبض عليه وعلى إخوته قاربه وقادته وعوقبوا أشد العقاب وصادرت أموالهم وأمتعتهم، ونكل بهم أشد تنكيل . وبذلك استرد إقليم الملتان وبلاد البنجاب والسند، وضمها إلى حوزته .

لم يكتف علاء الدين بذلك، بل صادر ممتلكات نبلأ جلال الدين، والأمراء والملوك الذين عملوا تحت قيادته - ولكن لا يطمئن إلى ولائهم، وحرص على لا التنكيل بكل من حامت حوله الشبهات بعدم الولاء والطاعة له، وذلك بالمصادرة والسجن والتشويه، وبذلك والولاء له، وجمع من المصادرات أموالا طائلة، مكتته من توسيع رقعة دولته، ودر الخطر عنها، والتصدى للحركات الانفصالية فى المملكة .

تتابعت انتصارات علاء الدين وفتح الكثير من البلدان، وضمها إلى حوزته، وحالفه التوفيق فى دفع الغزو المغولى المدمر عن الديار الإسلامية فى الهند، فأخذته نشوة النصر كل مأخذ، وركبه الغرور، وذهب عنه صوابه، فتوهم أن باستطاعته أن ينجز إنجازات الاسكندر الأكبر من حيث غزوه للعالم أو محاولة ذلك، وقهر الدنيا تحت سلطانه، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، فقد تصور أنه نبي لدين جديد وصاحب لا رسالة الأربعة وبدأ يتحدث عن إمكانية نشر دعوته فى أرجاء الدنيا، واستطاع بقوة بأسه وقوة جيشه وجنده التبشير بالدين الجديد والرسالة الجديدة، واستهوته قصص وأحاديث الشعراء والمؤرخين والأدباء عن الاسكندر الكبير، والتف حوله الانتهازيون الراغبون فى تحقيق منافع شخصية، فزينوا له صحة ما توهمه، وروجوا دعوته، وهياً السلطان نفسه لأن يصبح الاسكندر الثانى . ومما لا شك فيه أن رجال البلاد والقادة المقربين إليه قد وافقوه لا اقتناع بل اتبعوه رهبة منه، وخوفا من قسوته وبطشه، فلم يسعهم إلا التعبير عن رضاهم .

تصور السلطان أنه على حق فيما ذهب إليه، وجنون العظمة إلى التمدادى فى أفكاره وخيالاته وكان السلطان يقيم الحفلات الكثيرة، ويجمع فيها أكابر رجال دولته، ويتحدث فيها عن دعوته، وفى هذه الحفلات حذره عمه علاء الملك القاضى من خطورة ما ذهب ليه على ملكه، وعلى الوضع المال داخلى فى البلاد، ومن انتفاضة الكثيرين من الغيورين على دينهم، فقال: عن الدين يوحى به الله للخيار من عباده، ولا يمكن أن يكون يفعل أو يصنع إنسان وقال: إن الإسلام دين الحق يمكن القضاء عليه. حتى إقهار العالم وجبايرتهم مثل "جنكيزخان"، أراقوا من دماء المسلمين ما أراقوا ولكنهم لم ينالوا من الإسلام شيئاً، بل دخل المغول فى دين أفواجا، وأوضح أن الناس إذا وجدوا السلطان يشككهم فى معقداتهم فن يسمعون له ويطيعوا بل سيدمرون ملكه، وبذلك تعم الفوضى البلاد، ويتتهز أمراء الأقاليم فرصة هذه الفوضى، ويحققون أملهم فى الاستقلال عن دهلى. وأوضح علاء الملك للسلطان أن النبوة لا تأتى الملوك، وإن كان بعض الرسل قد أوتى من الملك نصيباً، وأما عن فكرة قهر العالم، فقد أوضح علاء الملك للسلطان أن الظروف تغيرت، وإن الإسكندر كان يستند إلى حكم الحكماء مثل "أرسطو" الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب، وهو مالا نظير له عند علاء الدين، كما أن الاسكندر ورث عن أبيه فيليب المقدونى، دولة اليونان الموحدة ذات الإدارة القوية.

وختم القاضى نصيحته للسلطان بقصر جهوده وتركيزها فى إخضاع بلاد الهند لسلطانه، وقهر الكفرة فيها، والدعوة على الإسلام فى غير وبلاد الإسلام وإصلاح البلاد، والقضاء على الفتن والثورات وحماية البلاد من هجمات المغول، وقد لقيت نصيحة علاء الملك أذنا صاغة من السلطان فأقلع عن فكرة الدعوة لنبوته وتأسيس دين جديد والتفرغ للغزو والفتح وإصلاح البلاد؟ وبذلك عدل السلطان عن دعوته التى كانت ستؤدى إلى ثورات وانتفاضات فى المملكة. قد يذهب ضحيتها السلطان أو تفكك عرى الوحدة فى البلاد.

تعرض علاء الدين لمؤامرة كادت تودى بحياته، وقاد هذه المؤامرة ابن أخيه

سليمان شاه، وكان يشغل منصب وكيل الدار، وأراد بخطبته أن يسقى علاء الدين نفس الكأس الذى أسقاه لجلال الدين، ويتولى هو - أى سليمان شاه - السلطنة، وكان علاء الدين قد أرسل عدة حملات إلى نواحى الهند للفتح والتوسع، بينما سار هو إلى رانثمبهور، وتوقف فى تلبات tilpat لبعض الوقت، وباعته قواده الذين أنضموا إلى سليمان شاه فى مؤامراته ورموه السهام فأصيب بجراح شديدة، وأعلن المتآمرون مقتله، وأعد سليمان شاه العدة لتولى السلطنة، وساد الذعر معسكر السلطان، وتفرق الجند السلطاني. وفى خضم هذه الفوضى. أخفى أنصار السلطان، السلطان، وضمّدوا جراحاته، وعالجوه خير علاج وأنجعه. وحينما توجه سليمان شاه - رأس المؤامرة إلى المعسكر السلطان مطالبا تسليمه له، رفض رجال علاء الدين ذلك، فجأة حدث مال يكن فى حساب المتآمرين، فقد ظهر علاء الدين فجأة وإن كان ضعيفا من ثار الجروح، فأسقط فى أيدي المتآمرين فلاذوا بالفرار بقيادة رئيسهم شاه لا يلوون على شىء إلى أفغانستان، وبذلك أحبطت هذه المؤامرة التى كادت أن تؤدى بالسلطان علاء الدين وتمهيد السبيل لتولى ابن أخيه سليمان شاه سلطنة دهلى.

رأى علاء الدين ضرورة استئصال شأفة فأرسل فرقا من جيشه إلى أفغانستان للقبض على المتآمرين، وأدى الجيش مهمته فقبض على سليمان شاه وقتل وحملت رأسه إلى معسر السلطان وانتقم السلطان شر انتقام من المتآمرين فأمر بقتلهم ومصادرة أموالهم، وسبى نسائهم وأطفالهم، وتوزيعهم على القلاع، وبذلك فشلت محاولة التخلص من علاء الدين، وخرج من هذه المحنة قويا.

على أن اغتصاب علاء الدين العرش من عمه سبب له متاعب كثيرة إذ أصبح واضحا عدم، جود قاعدة ثابتة لوراثة الملك وكان ذلك من أسباب طمع سليمان شاه فى اغتصاب العرش، واشغل بعض أمراء الأسرة ثورة فى دهلى منتهزين فرثة غياب علاء الدين عنها، وطالبوا بعزل السلطان، وتولية واحد منهم الحكم مبررين تدمرهم بشدة السلطان وقسوته، واستبداد وجوره، وغير أن حكومة

دهلى قبضت على المتآمرين، وسيقوا إلى علاء الدين فى رانثمبهور، بأمر  
بسلمهم، وزجهم فى السجون، ونكل بأتباعهم.

ولم تنته متاعب علاء الدين عند هذا الحد، بل واجه حركة ثورية أخرى ضد  
نظام حكمه قادها " حاجى " مولى وهو رجل طموح واسع الاطماعه، كان يشرف  
على إدارة بعض الأراضى الملكية، ولقد بدأ حاجى مولى مؤامرتة بالتصدي  
لتيرمىزى Tirmizi، الذى عهدت إليه حكومة دهلى بإصلاح بوابة بادون، وعرف  
عن هذا الرجل شدة البأس والعنف والغطرسة، لذا أضمر أهل دهلى له سوء،  
وبينما صاحبنا يصلح بوابة بدون أحاط بمسكنه عدد من الأكواخ أقان فيها العمال  
الذين عهد إليهم بتشيد القلعة، وتوجه حاجى مولى إلى منزله، زعمال أنه يحمل  
إليه رسالة من السلطان، وبينما تيرمىزى يتسلم الرسالة باغته حاجى ورجاله  
وقتلوه، واخرج من جيبه خطابا للناس نسيبه إلى السلطان زعم فيه أن علاء الدين  
أمره بقتله، وقد أخذ الناس الجزع والفرع بعد هذا الحادث حتى أغلقوا منازلهم  
وانضم إلى حاجى مولى المتذمرون من علاء اليد، والجند الفارون من جيشه بعد أن  
أضناهم طول الغياب فى الحرب والقتال. وأفح حاجى مولى فى إشاعة الفوضى  
والذعر فى دهلى، والتمكين لنفسه، وقاد أتباعه إلى السجون، وأمرهم باقتحامها،  
والإفراج عن نزلائها، فكثرت أتباعه وقوى أمره، واشتد بأسه، وأطلق لأتباعه العنان  
فنهجوا خزينة الدولة، ووزع الأسلحة والخيول والأموال على أصحابه وحصل على  
أموال طائلة من أعمال السلب والنهب التى قادها، واختار طفلا من سلالة  
ألتمش، وأعلنه سلطانا بدلا من علاء الدين الذى أعلن عزله، واعتزم أنه يحكم  
البلاد باسم هذا الطفل، وقد لقيت خطته قبولا من كثير من سكان المملكة إما رهبة  
أو كراهة لعلاء الدين، فوفدوا على السلطان الجديد وبايعوه وقدموا له فروض  
الولاء والطاعة.

كان طبيعيا ألا يقف علاء الدين مكتوف اليدين إزاء هذه الثورة التى هدمت  
دولته ومملكه، فاتخذ الأهبة لإخمادها، وعهد بهذه المهمة إلى ملك حميد الدين،

وبلغ خان، وسار جيش السلطان إلى دهلى، اشتبك مع حاجى ورجاله فى عدة معارك، انتهت بهزيمة حاجى، وسجق قوات التمرد، وقتل حاجى مولى، وعلقت رأسه على حربة، ودار بها الجند فى شوارع دهلى، ثم أرسلت على علاء الدين فى رانميهور، وحرص حميد الدين على استئصال الفتنة من جذورها، - فأمر بالقبض على أعوان وأنصار حاجى مولى، وصادر أموالهم، التى يسر حاجى لهم نهبها، وأودعت هذه الأموال فى خزينة الدولة، وانتقم حميد الدين من الثوار فقتل كل

من قبض عليه. وما لاشك فيه أن إخماد الثورات التى قامت ضد علاء الدين بالعرف والقسوة أدى إلى استتباب الأمر للسلطان، وإعادة الهدوء والسكينة إلى البلاد، وإخماد الفتن والثورات، وتوقف حركات التمرد والعصيان.

على أن كثرة الثورات التى حدثت ضد السلطان علاء الدين جعلته كثير الشك والريبة فى رجال الدولة حتى المقربين إليه، فبتهمه بعض المؤرخين بتدبير اغتيال يبلغ خان أثناء سيره إلى دهلى لقمع حركة حاجى مولى، إذ خشى أن ينتزع سلطانه، ولكن بارأتى يشك فى هذه الرواية التى ردها بعض المؤرخين، ذلك أن يبلغ خان كان شديد الإخلاص للسلطان، وحزن عليه علاء الدين كثيرا، / بل أمر بتوزيع الصدقات على روحه.

غادر السلطان الدين رانميهور، واتجه إلى دهلى، وتردد كثيرا فى دخولها، وبقى فترة من الوقت يجول ويصوّل فى ضواحيها، ولا يجسر على دخولها، لأن دهلى كثيرة الثورات ضد الحكم الخلقى، وزامر قواده بتطهير العاصمة الهندية من المتمردين، ولما اطمأن إلى استتباب الأمن والنظام فى دهلى، وخلوها من عناصر الثورة والفتنة دخلها، واخذ فى إصلاح أحوالها، وحل مشاكل الجماهير بها.

واستطاع علاء الدين بفضل ما بذله من جهد إعادة الأمن والطمأنينة إلى البلاد غير أنه لم يضع الحلول المناسبة لتفادى المشاكل لتفادى المشاكل الناجمة عن عدم وضع قواعد ثابتة لوراثة عرش دهلى، الأمر الذى أدى إلى حدوث ثورات

وفتن حول اغتصاب الحكم . بأبعد عن البلاط كل أعوان وأنصار سيده علاء الدين، وجردهم من وظائفهم وأسندها إلى أعوانه وأنصاره .

على أن كافور لم تصف له الأمور، ولم تبتسم له الأيام طويلا، ولم يسعد بالسيطرة على سلطنة دهلي على الرغم من إجراءات العنف وسياسة البطش والقمع التي اتخذها ضد المشتبه فيهم، فقد تدمر منه الناس وترقبوا ساعة الخلاص من هذا الحكم الغاشم، وأحاطوا كل تحركاته بالتجسس، وبرت الكثير من المؤامرات للتخلص منه، وأخرها حدث حينما أرسل فريقا من جنده لقتل مبارك خان في سجنه، ولما اقترب الجند من هذا الأمير، ألقى ما لديه من ذهب وفضة لهم وناشدهم عدم التعرض له، فاستجاب الجند لندائه، وتيقظ ضميرهم، ولم يكن غائبا عن أذهانهم أن كافور رجل ظالم مستبد، وين ألوان للتخلص منه، وتمردوا عليه، بل ساروا إلى قصره، وشنوا عدة هجمات على القصر، وتمكنوا من اقتحامه أخيرا، وقتلوه، وبذلك خلصوا البلاد من استبداد و بطش وجور كافور الغاشم الذى حكم البلاد خمسة وثلاثين يوما ارتكب خلالها أعمالا عدوانية بشعة ضد أفراد البيت الحاكم ورجال سيده .

لم يكتف الثوار بذلك، بل أفرجوا عن مبارك وعينوه نائبا للسلطان شهاب الدين بدلا من كافور، وقد بدأ حكمه للبلاد بداية حسنة، فأعطى النبلاء والقواد ورجاله أمانا على أنفسهم، ورد إليهم الأموال التي صادرها كافور منهم فطابت نفوسهم ورضوا عنه وناصروه والتفوا حوله وأيدوه، غير أنه عاد الاستبداد وأعمال العنف، وحديثه نفسه بالانفراد بالسلطة فنفى شهاب الدين عمر إلى جاووليار، وعزله عن العرض وولى هو السلطنة ولم يعد له منازع فى الحكم أو البلاط واعتزم تحطيم وتدمير كل مراكز القوى التي بالمملكة، والتي قد تضعف نفوذه أو تعرقل سياسته، وبدأ بالجند الذين أفرجوا عنه، وقتلوا كافور، وولوه بدلا منه فشتتهم فى البلاد، ورفض الاستعانة بهم فى إدارة دولته، وفى نفس الوقت تخلص من أنصار كافور، وكل من يخشى بأسه .

كان كافور خصم علاء الدين مقربا إليه وصاحب حظوة عنده، وكان طموحا يتطلع إلى السيطرة على مقاليد الأمور في البلاد عقب وفاة سيده، فانتهاز فرصة اشتداد مرض السلطان، وحمله على كتابة وصية بتولى ابنه الطفل عمر خان - وكان غرات صغيرا لا يتجاوز السادسة من العمر وفي نفس الوصية طلب السلطان من ابنه الأكبر خسرو خان التخلي عن المطالبة بالعرش، ولزوم الولاء والطاعة لأخيه الصغير، وعهد السلطان إلى كافور بالوصاية على ابنه الطفل، وبذلك حقق كافور على يد سيده السلطان ما كان يصبو ويتطلع إليه من الاستئثار والنفوذ في سلطنة دهلي.

لما توفي علاء الدين سنة ١٣١٦م جمع كافور النبلاء وكبار رجال الدولة، وأظهر لهم وصية السلطان الراحل التي أودعها إياه والتي تتضمن تولية ابنه شهاب الدين عمر. وبذلك خلف هذا الطفل الصغير أباه ولقب شهاب الدين عمر خلجي. وبتوليته أصبح كافور سيد الموقف في سلطنة دهلي بلا منازع.

ولكى يكتسب كافور احترام وتقدير الناس، وتزداد سيطرته على السلطان الطفل وعلى الحكم، تزوج من أمه راما ديفا Rama Deva وأمر بسماع عين خسرو خان الابن الأكبر للسلطان علاء الدين وأخيه شادي خان، حتى لا يطالب أحد الأخوين بالعرش بعد أن فقدوا الإبصار، ولم يكتف بذلك، وإنما جرد والدته خسرو خان من حليها، وأمر بنفيسها إلى جاوليبار.

وشعر كافور أنه غير آمن على نفسه، وفعلا اشتدت المعارضة له ولحكمه، واستنكر الناس فعله واستنبحوه، ولم يرضوا عن سيطرته على الحكم، فضلا عن تشويهه وإذلال بعض أفراد البيت الحاكم، وعادت الفوضى والاضطرابات إلى البلاد، فسعى إلى حماية نفسه من أعدائه المتربصين به، فعمد إلى نفي كل من تحوم حوله الشبهات من الأمراء وقواد الجيش وكبار رجال الدولة، بل شوه بعضهم بالسهام، وصادر أموال معارضيه فضلا عن إلحاقه ويلاتهم بهم، وازدادت شكوكه.

أعلن مبارك شاه نفسه سلطانا فى أبريل سنة ١٣١٨ وبدأ عهده كما فعل أسلافه من قبل بمنح الهبات والهدايا والألقاب لكبار رجال الدولة .

كانت البلاد فى ذلك الوقت تمر بظروف حرجة للغاية وفى أشد الحاجة إلى حكومة قوية تنقذها من الهاوية التى تردت فيها، وترأب الصداع، وتعيد الأمن والطمأنينة إلى الناس، بعد أن فرقت بلادهم الفتن والثورات، وعمت فيها القلاقل والاضطرابات نتيجة للمنازعات والمشاحنات حول السلطة والنفوذ، وأدى السلطان الجديد فى مستهل عهده دوره فى إعادة الهدوء والسكينة إلى البلاد، وأثبت أنه رجل الساعة، وأصلح البلاد فاطمأن الناس إلى العهد الجديد.

وأفرج السلطان عن اللوف الذين زجوا فى السجنون بتهم التمرد - أو الاشتباه فى ذلك - على كافور، ومنح الجند مكافآت مالية، وأغدق المال على المحتاجين من رعاياه، ووزع الأموال التى صادرها علاء الدين إلى أصحابها، وخفف عن الناس عبء الضرائب ومنع كبار موظفى الحكومة من استغلال الأهلين، وكان ينظر فى الشكاوى والالتماسات التى يرفعها الناس له، ويضع بنفسه الحلول المناسبة لها، وألغى القوانين الصارمة التى وضعها علاء الدين على التجار، وكانت تحد أرباحهم فاتتعش التجار، وراجت التجارة، وخفف عن الفلاحين ضريبة الأرض، ورفع أجور الموظفين. وباختصار تحسنت أحوال الناس المعيشية على اختلاف طبقاتهم. وإذا أضفنا إلى ذلك الحريات للشعب تستطيع أن تقول إن هذا السلطان حقق لبنى وطنه ما لم يحقق لهم منذ سنوات طوال.

على أن رجال علاء الدين لم يرضوا عن السلطان الجديدة، لأنه أقصاهم عن مباشرة شئون الدولة، وعلولا على التخلص منه، وتزعم هذه الحركة أسد الدين، وقد انتقد هؤلاء المعارضون السلطان قطب الدين لسوء اختياره لموظفى الحكومة ورؤساء الدواوين ورجال البلاط، واتهموه بأنه يقضى وقته فى اللهو والعبث والاستماع إلى الغناء، وقاد أسد الدين المعارضة فى مؤامرة كبرى تهدف

إلى قتل السلطان قطب الدين وهو فى طريقه إلى دهلى، وتوليته أى تولية أسد الدين السلطنة.

لم يقدر لهذه المؤامرة النجاح فقد أخطر كبار رجال الدولة السلطان بالمؤامرة قبل تنفيذها، فتدارك الأمر فى أوله وتلاحقه فى ابتدائه قبل أن تضطرب نار الثورة، ويعم الكرب ويشتد البلاء، فأمر السلطان بالقبض على زعيم حركة الانقلاب المرتقب، وكل من اشترك وساهم فى محاولة قلب نظام الحكم من قريب أو بعيد، وأمر بقتلهم، وصادر لأموالهم، وكان انتقامه شديدا جدا من الثوار حتى أنه قتل أطفالهم، وشرذ البعض الآخر فى شوارع دهلى لا مأوى لهم، ولا عائل يعزلهم، ولم يكتف بذلك، بل نصب المشانق فى دهلى وأقام مذبحه مروعة قتل فيها كل من ينتمى إلى البيت الحاكم بصلة وكل من تحوم حوله الشبهات باحتمال قيامه أو اشتراكه فى انقلاب ضده فى المستقبل، واستأصل الفروع والجذور من أسرة علاء الدين، وأسرف فى القتل وإراقة الدماء حتى نائبه الذى كان مخلصا له، واتهمه بالإهمال وعدم كشف المؤامرة فى حينها.

ولكن سياسة العنف هذه لم تقض على محاولة عزل قطب الدين عن العرش فقد ظهرت مؤامرة أخرى اختلف المؤرخون حول اسم السلطان الذى رشحه المتآمرون لتولى الحكم، وضربوا العملة باسمه، فيذكر مؤرخ متأخر أنه ابن خسرو خان بن علاء الدين، أما باراتى فلا يذكر ذلك وينفى اشتراك خسوخان أو أحد أبنائه فى المؤامرة، وعلى ذلك فإن الاسم الذى نقش على العملة، الملك شاهين - نائب السلطان على دهلى والذى قتله السلطان على أثر دخوله دهلى.

لم يكتف السلطان قطب عن أعمال العنف ضد أبناء علاء الدين لأنه كان يتوجس خيفة، ويخشى أن يتآمروا عليه، وينضم إليهم أنصار أبيهم، وهم خسرو خان، وشادى خان، وشمس الدين، وأمر بالقبض عليهم وإرسال أفراد عائلاتهم إلى دهلى، وهؤلاء الأمراء سملت عيونهم، وعاشوا فى المنفى فى شظف من العيش، وعمد السلطان إلى إذلالهم، فكتب إلى خسرو خان رسالة ذكر له فيها أنه

- أى خسرو خان - فقد بصره واعتلت صحته، وعرض عليه أن يفرج عنه، ويعينه حاكما على أحد الأقاليم، ويمنحه الألقاب والامتيازات المناسبة له، فى مقابل أن يتخلى عن زوجته دفال رانى التى قال إنه أصبح ذليلا لها، وطلب منه إرسالها إلى البلاط لتهدئة عاطفته نحوها وإعادتها إليه بعد ذلك جارية مطيعة. على أن خسرو خان قد حزن من هذه الرسالة، ورفض الإذعان لنداء السلطان، وتمسك بزوجته، بل آثر الموت على التخلي عن محبوبته، ورفض إجراءات السلطان له التى يهدف السلطان منها اغتصاب زوجته بالقوة، وقد تعرض خسرو خان فعلا للموت بسبب رفضه عرض السلطان فقد أمر باغتياله، وكان حدثا مروعا اهتزت له قلوب الناس فى كل مكان، ووصفه ابن بطوطة وعلم به مارمو بولو من بعض الهنود، ورواه غيره من الرواة. وأرسلت ديفال إلى دهلى، وأمر السلطان بقتل شادى خان، وشمس الدين وغيرهم واغتصب زوجاتهم، وشرد أطفالهم، وقد وصف لنا بارانى مدى استياء الناس من الجرائم التى اركبها قطب الدين ولكن على الباغى تدور الدوائر.

على أن أعمال العنف التى اتبعتها السلطان مع أعدائه لم توقف المؤامرات ضده، ولم تخمد الثورات المعارضة لحكمه فى البلاد، بل زادت اشتعالا، وأبرزت هذه الانتفاضات ما قام به نظام الين أوليا، وهو رجل تقى ورع، طبقت شهرته الآفاق، ووفد إليه الناس من كل صوب وحذب للزيارة والتبرك، وكان علاء الدين يقدره ويعتز به، أما قطب الدين ناصبه العدا، وخشى من تجمع الناس حوله لما فى ذلك من خطورة عليه، إذا قاد هذه الجموع فى حركة غزو ضده فمنع النبلاء وكبار رجال الدولة من زيارته، وحاول إضعافه وإبعاد الناس على التفرق من حوله، كما حرض المشايخ الكبار فى الدولة عليه ولم يكتف بذلك بل أمر بقتله حتى يخمد ما قد يثيره هذا الشيخ من متاعب فى وجه هذا السلطان الظالم.

أدت سياسة السلطان الداخلية المتسمة باليقظة إلى توقف الحركات الاستقلالية فى الكوجرات ودكا، ولكن قسوته على خصومه وإسرافه فى إراقة الدماء،

واستبداده وعدم استماعه لنصح الناصحين، أدى إلى اشتداد كراهة الناس له، وتطلعهم إلى التخلص منه، وبذلك فقد ثقة الرعية به، وازداد بطشه بالناس، وقضى أيامه فى لهو وعبث ومجون بلاطه المغنين والمغنيات والراقصات.

لم تتوقف المؤامرات ضد هذا السلطان على الرغم من بطشه بأعدائه، فاندلعت ثورة ضده فى ديفاكيرى قادها يال لآخى Yaklakhi فعول السلطان على إخماد هذى الفتنة وأرسل فرقة من الجيش لقمعها، ولكن الثائر لم يعد العدة الكافية لصد جيش السلطان، وكان يعتقد أن جند السلطان سينضمون إليه نظرا لحالة التدمخر السائدة فى البلاد، ولكن حدث ما لم يكن يتوقع، فهاجمه جيش دهلى، وخشى رجاله سوء العاقبة، فانفضوا من حلوه، وعندئذ ضعف أمر الثائر، فقبض عليه جند دهلى وأمر السلطان بقطع أنفه وأذنه، وبذلك فشلت هذه الحركة، واشتدت قبضة السلطان على الدولة، وتأكدت سيطرته الكاملة عليها من جديد؟

ولكن طغيان قطب الدين واستبداده لم يتوقف محاولات قتله واغتياله، فتعددت المحاولات للتخلص منه وكان آخرها مؤامرة وزيره خسرو، فقد نجح فى ضم بعض النبلاء إليه، وعاهدوه على النصر والتأييد، وانضم إليه الكثير ممن لحقهم الضيم على يده.

بدا الوزير مؤامراته ضد السلطان، بأن أقنعه بأنه أى السلطان يخرج فى حروب كثيرة، ويجب فى غيابه أن يطمئن على الأمن والنظام فيدهلى، ولا يستطيع أى خسرو الاطمئنان لأحد فى هذه المهمة سوى رجاله المقربين من الكجرات، وأغدق عليهم خسرو الأموال، وأعطاهم خيولا وأسلحة وملابس، واستكثر خسرو منهم، حتى صاروا حوالى أربعين ألفا كلهم طوع وأرادته ورهن إشارته. وبذلك عظم شان خسرو خان وقوى أمره، واشت بأسه، وعهد إلى رجاله بحراسة القصر، فأصبح هذا السلطان تحت رحمة وزيره، ودبرت المؤامرة، وكان من اليسير جدا نجاحها وتنفيذها وفقا للخطة المرسومة، فأمر خسرو رجاله

بقتل السلطان، فانهالوا عليه ضربا بسيوفهم حتى قتلوه وألقوا رأسه فى فناء القصر. وبذلك تجرع هذا السلطان من نفس الكأس الذى أسقاه للكثيرين فى ابريل سنة ١٣٢٠م. وخاب كل جبار عنيد.

وقد لحق الناس من السلطان قطب الدين الكثير من المظالم، على الرغم من أنه بدأ عهده بالعدل بين الرعية وإصلاح أحوال البلاد، ولكن المؤامرات العديدة التى تعرض لها جعلته غير مطمئن على نفسه وعلى ملكه، فاشتد فى قمعها وقلب على شعبه ظهر المحن، فطغى وتجبى، بل أساء إلى مشاعر الناس الدينية، فأهمل المراسم الدينية كالظهور فى الصلاة، والاحتفالات فى رمضان والعيدى وأساء إلى الدرويش نظام الدين، وعلى الرغم من ذلك فقد لقب بألقاب لا يستحقها، مثل خليفة، الأعظم أمير المؤمنين.

ومهما يكن من أمر فقد عبر خسرو خان عن سخط شعب المملكة الهندية على سلطانها، وتخلص منه، لذا نادى به النبلاء ورجال الدولة، وترجع على عرش سلطنة دهلى، ولقب ناصر الدين خسرو شاه، وأمر بالدعوة له فى الخطبة وعلى أنه أمير المؤمنين.

ولى خسرو شاه العرش فى هذه الظروف العصيبة، ولما كان مدينا لبنى قومه من الكجرات فيما بلغه من جاه فقد خصهم بالمناصب الرفيعة فى الدولة، واعتمد عليهم فى شئون الحكم على أن هذا السلطان الجديد اتخذ سياسة تختلف كل الاختلاف عن سياسة أسلافه من الحكام المسلمين، فقد أباح لكفار الهنود إظهار نحلهم ومللهم والتعبير عنها علنا، فنصبوا أصنامهم فى كل مكان، وازداد الأمر خطورة، فاستفزوا شعور المسلمين، ومزقوا المصاحف، ووضعوا أصنامهم فى القصر الملكى، وهاجموا المساجد واقتحموها، ومنعوا المسلمين من تأدية شعائرتهم فيها، بل نصبوا أصنامهم فى بيوت يذكر فيها اسم الله.

واغتصبوا البنات المسلمات. ومن الطبيعى أن يرضى كفار الهنود عن السلطان فالتفوا حوله وناصروه، ورأوا فيه خير كعين على المحافظة على شعائرتهم

وإظهارها والانتقام من المسلمين، ولم يكتف هذا السلطان بالتغاضى عن إيذاء شعور المسلمين الدينى بل فرض عليهم الأموال، وأغدق عليهم.

وبرر السلطان تصرفه هذا بأنه انتقام من المسلمين الذين دمروا معابدهم، ودمروا أصنامهم، وأحرقوا كتبهم، لذلك يرى البعض أن حكم هذا السلطان مظهر الردة عن الإسلام، ونستبعد ما يذكره بارانى بأن السلطان أراد أن يعيد الوثنية إلى الهند، ويعيد البلاد إلى حكم راجات الهنود، ذلك أنه دخل الإسلام وهو طفل صغير وعاش ونشأ فى الحياة الإسلامية وكان شديدا قاسيا حينما اشتبك فى دكا مع كفار الهنود قبل توليته الملك، بل كان أكثر قسوة من أى حاكم مسلم، وفى نفس الوقت ظل على دينه وعقيدته وإن ظل تاركا حركة اضطهاد المسلمين من كفار الهنود تسير فى مجراها دون أن يتدخل لإنهائها أو يشترك فى دفعها، وأبقى على الحكام المسلمين فى الولايات، وربما أراد السلطان بذلك كسب محبة وتأييد فريق كبير من الناس للوقوف إلى جانبه ومناصرته ضد حركات التمرد التى انتشرت انتشارا واسعا ضد هذا السلطان دهلى، ويقودها عادة كبار الدولة من المسلمين ضد هذا السلطان الوضيع الذى ينتمى أصلا إلى طبقة جامعى القمامة فى الهند الغربية، فقد عجل بنهايته بسياسة الغاشمة التى آذت شعور المسلمين، وساد التذمر بينهم، وأعدوا عدتهم للخلاص من هذا الحاكم - ناصر الكفرة الملاعين.

وقد قاد تغلق حركة المعرضة ضد السلطان، فزحف بجيش كبير يضم خيرة جند شمال غرب الهند وصناديدهم، إلى دهلى، فأرسل خسرو خان جيشا لصد عدوه، وقد تناقص جيشه بعد فرار الجند الغيورين على دينهم منه، وانضمام بعضهم إلى جيش تغلق، ومهما يكن من أمر فقد التقى الجمعان فى ديوبالپور De-opalpur وهزم الجيش الملكى، وتفرق الجند، ولاذوا بالفرار، بل فر قائد الجيش الملكى، تاركا الأسلحة والخيول والفيلة والأموال ومهمات الجند واستحوذ جيش تغلق على هذه الغنائم، ثم زحف تغلق وجنده إلى دهلى، وانتظر السلطان مصيره المحتوم وقدره الذى حدده بسياسته الغاشمة.

سار تغلق وجنوده إلى دهلى لا يعترض طريقهم معترض، ولما اقترب تغلق منها نصب معسكره، ودعا الناس في دهلى إلى طاعته، ولقيت دعوته من أهل دهلى الذين كرهوا خسرو خان الذين أذى شعورهم ومعتقداتهم ثم دارت المعركة الفاصلة سنة ١٣٢٠ بين جيش تغلق وجيش السلطان انتهت بهزيمة جيش السلطان ومقتله أي السلطان وألقيت رأسه في فناء القصر، كما ألقيت رأس مبارك شاه. وبذلك انتهى حكم خسرو خان بعد أربعة أشهر وبنهايته انتهى حكم سلاطين الخليجيين في بلاد السند.

\*\*\*

## ٣- الأحداث الداخلية فى سلطنة دهلى الاسمية

### فى عهد بنى تغلق

ينسب آل تغلق إلى نصر تركى، وكان يقيم فى الهند منذ زمن طويل، وأول من حكم سلطنة دهلى من هذه الأسرة، غياث الدين تغلق شاه، قدم بلاد السند فى خدمة بعض التجار فى أيام السلطان علاء الدين، ودخل فى خدمة أولو خان - أمير السند إذ ذاك فظهرت شجاعته، وتدرج فى سلك الفروسية، حتى صار أمير الخيل، وكان اولو خان يعده من كبار الأمراء، وسمى بالملك الغازى لأنه صد الكثير من غزوات المغول وهجماتهم، وحاصرهم ونكل بهم، ولما ولى قطب الدين ولاء مدينة دبال وأعمالها، وعهد إلى ابنه محمد تغلق بإمارة الخيل وظل يشغل وهذا المنصب فى عهد السلطان خسرو شاه، فلما استاء تغلق من خسرو شاه الذى اغتصب العرش، وقتل السلطان، وأباح للهنود الوثنيين إظهار نحلهم، والتنكيل بالمسلمين، وأظهر أمورا منكرة منها النهى عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود، وأعلن - أى تغلق - الثورة والخروج على الطاعة، وكان له ثلاثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم فى القتال، وكتب إلى كشلوخان - أمير الملتان - يطلب منه القيام بنصرته والأخذ بثأر قطب الدين لسابق فضله وإخلاصه، ولكن كشلوخان اعتذر لأن ابنه فى خدمة السلطان فى دهلى، فحرض تغلق ابنه باصطحاب ابن كشلوخان، والهرب معا من دهلى، فلحق الرجلان بتغلق، وحينئذ وادت الفرصة تغلق، فحشد أنصاره، وأعد العدة، والتف حوله الكثير من الناس، فقوى أمره، واشتد بأسه، وانضم إليه كشلوخان وزحف الجيش الثائر إلى دهلى - كما أوضحنا - وهزم تغلق جيش السلطان بقيادة أخيه - خان خانان - واستولى على خزائنه، وشتت شمل جنده، وقصد تغلق دهلى، وخرج إليه خسروخان فى عساكره، وفرق الأموال على أنصاره، ودارت رحى معركة بين الفريقين انتهت بهزيمة تغلق غير أن الجند السلطاني انشغل عقب المعركة فى جميع الغنائم فباغتتهم جند تغلق على حين غفلة منهم، وهزموهم شر هزيمة، ولاذ من نجا من العدو بالفرار،

فدخل جند تغلق دهلى لايترضهم معترض، ولا يعوق عائق، ودخل تغلق القصر الملكى، وجلى على السرير الملك، وقدم لناس لمبايعته، وبذلك انتقل حكم سلطنة دهلى من الخلجيين إلى بنى تغلق.

لم يقدر لسلطنة دهلى الإسلامية الهدوء والاستقرار فى عهد بنى تغلق، وإنما كثرت القلاقل والاضطرابات فى الدولة وتعرض سلاطين هذه الأسرة للمؤامرات التى تستهدف بالدرجة الأولى انتزاع كرسى الحكم منهم، بل تأمر الابن على أبيه، كما حدث سنة ١٣٢٥، ذلك أن محمد بن تغلق ثار على أبيه، وكان الأب ينقم على ابنه تقربه للوالى نظام الدين البذوانى، وساءت منه أمور منها استكثاره من شراء المماليك وإجزاله العطايا واستجلابه قلوب الناس، فلما عاد تغلق من سفره، أمر ابنه بإقامة قصر فى الطريق إلى دهلى، وأقام محمد بن تغلق القصر ومعظم بنائه من الخشب، وصمم هذا القصر بحيث إذا وطئت الفيلة، وقع ذلك القصر وسقط، ونزل السلطان بالقصر، وأطعم الناس وتفرقوا، واستأذنه ولده فى أن يعرض الفيلة بين يديه وهو مزينة فأذن له، فلما وطئت الفيلة القصر، سقط الكشك على السلطان وولده محمود، ولقى السلطان حتفه، ودفن بخارج البلدة التى سميت باسمه، تغلق آباد، وبها كانت خزائن تغلق وقصوره، وبها القصر الأعظم، واستولى محمد على هذه الكنوز، وولى السلطنة، ولقب أبو المجاهد محمد شاه.

كان السلطان محمد بن تغلق غريب الأطوار، فهو أحب الناس إلى إغداء العطاء، وإراقة الدماء، فلا يخلو بابه من مغن يغنى أو حى يقتل، وله حكايات كثيرة فى الكرم والشجاعة، والفتك والبطش بذوى الجنائيات، وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا، وأكثرهم إظهارا للحق والعدل ويتشدد فى تأدية الفرائض الإسلامية، ويعاقب تاركى الصلاة وفاطرى رمضان.

رأى السلطان محمد بن تغلق نقل حاضرة دولته إلى مدينة ديوكور لحصانتها وتوسطها مملكته الواسعة المترامية الأطراف، ولكى يأمن من خطر المغول الذين

يهاجمون دهلى من وقت لآخر، وأسمى العاصمة الجديدة دولت آباد، وأمر سكان دهلى بترك بلدهم، والهجرة إلى العاصمة الجديدة طوعا أو كرها، وشق الطرق المؤدية إلى دولت آباد، وحمل سكان دهلى أمتعتهم، وهاجروا من مدينتهم الحبيبة إلى قلوبهم كارهين، وساروا إلى مقرهم من مدينتهم على كره منهم فى رحلة شاقة ذاقوا ألوان العذاب، وهلك كثيرون منهم، وخربت دهلى بهجرة أهلها منها، وأصبحت بلدة موحشة، تبكى قصورها ودورها من شيدها وبنائها صرحها. أما المهاجرون من ديارهم وبلدهم، فلم يستطيعوا المعيشة فى المدينة الديدة، وقاسوا ويلات الجوع والحرم، لأن سبل المعيشة فيها غير متوافرة وغير كافية للقادمين الجدد وقد ارتكب السلطان خطأ جسيما لأنه لم يراع الشروط الواجب توافرها فى تشييد المدينة الجديدة، فيجب أن تقع فى بقعة زراعية تكفل لسكانها العمل والعيش، أو على طريق تجارى، يضمن لأهلها المعيشة من عمليات البيع والشراء فضلا عن طيب الهواء للسلامة من الأمراض.

ومهما يكن من أمر فقد تراجع السلطان عن قراره بعد أن أدرك فشل مشروعه، وأمر أهل دهلى بالعودة إلى بلادهم، غير أن دهلى قد تطرف إليها الخراب والدمار، ولم تعد تصلح للحياة، فشىد السلطان لهؤلاء القوم الذين قاسوا الشدائد من سياسته الغاشمة، مدينة قرب دهلى، كفل لهم فيها أسباب الحياة الميسرة، والأمن الغذائى.

لم تستقر الأمور فى سلطنة دهلى فى عهد محمد بن تغلق فقد قامت ضده عدة ثورات، وحركات استقلالية، واضطربت الدولة اضطرابا شديدا فغادر السلطان دهلى - على الرغم مما كانت تقاسيه من مجاعة - إلى إقليم الدكن، لقمع ثورته، لكنه اضطر إلى العودة إلى دهلى بعد أن فتك الوباء بجنده سنة ١٣٣٥م، كما أعلنت البنغال الاستقلال عن دهلى بقيادة فخر الدين، ولم يستجب أمراء البلدان المجاورة للبنغال لأوامر السلطان بالخروج إلى البنغال، وقمع الثورة مما يدل على أن سلطان دهلى قد فقد نفوذه فى تلك البلاد.

وعمت الفتن والاضطرابات لاهور وديوكور وغيرها من الولايات الهندية، ولم يستطع السلطان القضاء على هذه الفتن، وتوفى سنة ١٣٥١م بعد أن تدهورت سلطنة دهلي، واستقلت معظم ولاياتها.

لم يكن للسلطان محمد بن تغلق وريث يخلفه، لذا ولي ابن عمه فيروز تغلق الحكم من بعده، وقد حكم هذا السلطان بالعدل، وسار في الناس سيرة حسنة، غير أنه واجه المتاعب الداخلية، فقد ظلت البنغال على تمردا وتزعم الحركة الانفصالية فيها "حاجي إلياس"، لذا لم يتغاض هذا السلطان عن هذه الحركة، وعول على إعادة البنغال إلى حوزته، وأرسل منشورا إلى الأهلين يدعوهم إلى الاستسلام والعودة إلى الولاء والطاعة إلى السلطان دهلي، ووعدوهم بالعفو والصفح، ورفع الضرائب عنهم سنة كاملة إن استجابوا لندائه، وأذاع في منشوره بأنه مفوض من قل الخليفة العباسي بالقاهرة، وأن الخروج عليه خروج على الإسلام، وسار هذا السلطان إلى البنغال، وطهر البلاد من طريقه من المتمردين، ودخل إقليم "جنجنكر" ودخل الراجا في طاعته، بل اعتنق الإسلام، كما أن حكام المدن المجاورة، أقبلوا على السلطان معلنين إسلامهم، والدخول في طاعته.

كذلك عاد "الزط" في لاهور وما جاورها إلى التمرد والعصيان، فعهد فيروز شاه إلى أحد قواده لقمع حركة الزط، فدخل معهم في معركة حاسمة، أدت إلى هزيمتهم، وأسر زعيمهم.

أما عن الدكن فقد اتجه أهلها إلى الاستقلال عن دهلي، وتمكنوا منه فعلا منتهزين فرصة انشغال السلطان بمتاعبه الداخلية والخارجية، وقد تعددت الثورات في الهند التي نتج عنها ضياع مساحات كبيرة من الأراضي من السلطة دهلي.

على أن هذا السلطان كان محبوبا من رعاياه، فقد كان بارا بالفقراء وأنشأ ديوان للخيرات لمساعدة الفقراء على قضاء ضروريات حياتهم، وتقديم معونات للفتيات في حالة الزواج، وإعانة الأطفال اليتامى العجزة والشيوخ.

لكن سلطنة دهلى ظلت مسرحا للقتال والاضطرابات. ففي أواخر عهد السلطان فيروز شاه، فوض هذا السلطان أمور دولته إلى وزيره خان جهان ظفرخان، ولكن هذا الوزير أدخل بالثقة التي منحها لها السلطان، واعتزم الاستحواذ على العرش، وإزاحة ولي العهد، "محمد بن فيروز" من طريقه حتى يخلوا له الأمر، وضم إليه فعلا بعض الأمراء ورجال الدولة، وحرص السلطان على خلع ابنه من ولاية العهد بتهمة أنه يتآمر عليه مع بعض أعدائه، ولكن السلطان فطن إلى سوء نواياه ووزيره، وعزله، ومن ثم انفرد محمد بن فيروز بأمور سوء بامر البلاد بلا منازع، ولكن هذا الأمير كان سيئ السيرة، قاد البلاد إلى الدرك الأسفل، وعكف على اللهو والعبث، بل اعتمد على عناصر السوء في البلاد وخارجه، فثار عليه الأمراء ورجال الدولة، والتفوا حول ابنه أخى السلطان، "بهاء الدين وكمال". وبذلك أصبح في دهلي فريقان يتنازعان السلطة والنفوذ، وتصدى كل فريق لآخر، وتدهور الوضع في البلاد تبعا لذلك، ودارت معارك دامية في شوارع دهلي بين الفريقين، فلم ير السلطان الشيخ بدا من الخروج من عزلته، وظهر للناس، وأقنعهم بلزوم الطاعة والهدوء والسكينة، والتوقف عن أعمال الشغب، وكان النداء هذا السلطان الطيب تأثير كبير في قلوب الأهليين، فهدءوا واستكانوا، وكفوا عن إثارة الفوضى والفتن.

عزل السلطان ابنه محمد من ولاية العهد لأنه من عوامل الاضطرابات في دهلي، وأسند ولاية عهده إلى حفيده غياث الدين بن فتح خان، ولم يلبث أن توفي السلطان الشيخ، وولى حفيده الشاب الحكم. على أن السلطان الجديد لم يكن جديرا بتولى مهام الحكم، وهو من غضاضة الشباب، فقد انصرف إلى اللهو والعبث وأغفل مشورة الأمراء وأهل الحل والعقد في الدولة، فثاروا ضده، وكثر المعارضون له، وقاد الحملة ضده ابن عمه أبو بكر، وهاجم الثوار القصر الملكي، فلاذ السلطان بالفرار منه، على أن الثوار لحقوا به، وقتلوه بعد أن حكم البلاد ما يقرب من خمسة أشهر، وولى أبو بكر السلطنة.

على أن محمد بن فيروز لم يتغاض عن حركة ابن عمه أبي بكر، واغتصابه العرش، فجمع حوله الكثير من الأنصار في الدؤاب وقوى أمره، واشتد بأسه، ودخل دلهي واقتحمها، وقبض على السلطان الجديد أبي بكر سنة ١٣٩١، وولى هو السلطنة. على أن البلاد لم تهدأ في العهد الجديد، وإنما ظلت مضطربة متوترة، وتناقش الأمراء ورجال الدولة حول السلطنة والنفوذ، وانقسم الناس إلى أحزاب وشيع، حتى جنح كثير من حكام الولايات وأمراء الهنادكة إلى نبذ سيادة دهلي والاستقلال بما في أيديهم من بلاد وحصون.

وظلت سلطنة دهلي في هذا الوضع المضطرب حتى آخر سلاطين آل تغلق سنة ١٤١٢ ونصب أعيان دهلي دولت خان - من الأسرة اللودية - حلكما على البلاد، وتعرضت سلطنة دهلي للغزو التيموري في الفترة من ١٣٩٨ حتى ١٤٩٠م الذي أهلك الحرث والنسل، وأتى على الأخضر واليابس، وأقام الخضر خانين - الذين خلفوا آل تغلق - دولتهم في دهلي في ظل الدمار، وكان خضر خان أول أفراد هذه الأسرة من أمراء فيروز شاه التغلقي، وكان واليا على الملتان، ولما توفي محمود شاه التغلقي أعلن استقلاله.

\*\*\*

## الإمارات المستقلة فى عهد الهند عن دهلى

لم يكن سلطان دهلى طوال العصور الوسطى قادرا على السيطرة على الولايات التابعة للملكته، ومن ثم استقلت بعض الولايات عن دهلى وخصوصا البعيدة النائية عنها، حتى اندمجت نهائيا فى إمبراطورية المغول، وهذه الإمارات "Jaunpur Mandu" وكشمير والبنغال، واستقلت كذلك مملكة "الكجرات" سنة ١٤٠٠ وشىد السلطان أحمد شاه ١٤١١ - ١٤٤١ مدينة أحمد آباد لتكون عاصمة لمملكة الكجرات، وتقع فى وسطها، وتشتهر هذه المملكة بثرائها، وتقدمها فى صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية، وتتصل بالبحر بسهولة ويسر، وقد أشاد الزوار الأجانب بمدينة أحمد آباد، وذكر بعضهم أنها من أجمل مدن الأرض وشبهها آخرون بالبندقية.

ومن أشهر سلاطين الكجرات "محمد بيجارها" (١٤٥٠ - ١٥١١) وكان له تأثير كبير على الزوار الأجانب مثل الرحالة الإيطالى Ludovico varthema، ومظهر هذا السلطان آثار الدهشة، طويل القامة، له شنب كثيف، ولحية تتدلى إلى وسطه، ويتخذ أدوية تحصنه من السم.

ولى محمود العرش فى سنة الثالثة عشرة، ورغم صغر سنه استطاع أن يسيطر على البلاد وتغلب على خصومه، وسيطر على البلاد المجاورة وتغلب على دولة Champanir الهندية ودخل خلفائه فى حروب مع الراجيوتيين فى وسط الهند، وفى سنة ١٥٣٤ استولى السلطان محمود (١٥٢٦ - ١٥٣٧) على "شيتور" ولاذ أميرها بالفرار، وألقت النساء فى هذه البلدة بأنفسهم فى النار حتى لا يقعن فى الأسر، وتعرض رجال شيتور لسيوف المسلمين، ومزقوا شر ممزوق. على أنه فى العام التالى هزم سلطان دهلى "هيمايون" سلطان بهاور، ومن ثم سادت الفوضى والحروب والأهلية إمارة الكجرات حتى امتلكها الإمبراطور المغولى أكبر سنة ١٥٧٢.

واشتهرت العاصمة "أحمد آباد" بجمال مبانيها، وشيد بها العديد من المساجد، تميزت بارتفاعها ورشاقة مآذنها. وشيد السلطان محمود بجوارها قصرا على ضفاف بحيرة صناعية فى سارخيج، وتقع على بعد أميال قليلة من المدينة. على أن أهم إنجازاته العمرانية، المساجد الجامع فى شامبانير وبه قبة رائعة ومآذن وأعمدة، ومزين من الداخل، ونقشت على جدرانها آيات قرآنية، ويعد من أجمل المنشآت الدينية وأبهاها فى غرب الهند.

وفى سنة ١٣٤٧ خلال حكم محمد تغلق، انتهز ضابط أفغانى يسمى "حسن جانجو" الفرصة ليكون دولة مستقلة عاصمتها Culbaragae فى جنوب غرب الهند وتسمى دولة حيدر آباد، واستمرت مملكة "البهمانى" من سنة ١٣٤٧ حتى سنة ١٤٨٢، وامتدت فى إبان قوتها من البحر إلى البحر، واشتملت على حيدر آباد ومنطقة فى جنوب مدارس، وجزء من منطقة بومبى، ومن الطبيعى أن يدخل أمراء حيدر آباد فى حروب مع الحكام الوارثين انتزعوا منهم الحكم. وأشتمل بلاط ملوك البهمانى على مواطنين وأجانب. وقد تحيز ملوك البهمانى إلى الأجانب دون المواطنين الذين عمدوا إلى إضعاف شأنهم، وانتهجوا سياسة دعوة فريق من المغامرين من العرب وفارس وبلاد الأفغان، وأسندوا إليهم المراكز الهامة فى البلاد. وأدى ذلك إلى أحقاد عميقة. وزاد الأمر سوءا أن القادمين إلى البلاد من الشيعة. أما المواطنون فسنيون.

انقسمت مملكة البهمانى إلى أربع ولايات، تتمتع كل منها بقدر من الاستقلال، ولكل حاكم من حكام الولايات جيشه، ومن حقه فرض الضرائب وجبايتها من ولايته ويعين الموظفين الذين يساعده فى حكم الولاية. وبالجملة كان يشرف على الشؤون الإدارية والمالية والدفاعية لولايته. أما السلطان فيساعده ثمانية وزراء، كل مسئول عن اختصاصه مثل المالية أو الشؤون الخارجية، القضاء، الأمن... إلخ ونظم ملوك هذه الأسرة الجيش أحسن تنظيم.

لما توفي مؤسس هذه الأسرة سنة ١٣٥٨ خلفه ابنه محمد الأول وبدأ هذا الملك حكمه بأن حصل على تقليد بالحكم من الخليفة العباسى بالقاهرة حتى يضىفى على حكمه الصفة الشرعية .

نشبت حرب بين مملكة بهمانى ومملكة Vijayanagar ، تقدم فيها جيش بهمانى عبر أراضى العدو، ولكنه لم يستطع مهاجمة أراضيها . وانتهت الحرب بعقدة اتفاقية سلام بين الطرفين .

وولى "محمد الثانى" العرش سنة ١٣٧٨ ، وكان حاكما عادلا مصلحا شجع العلوم والآداب، ودعا إلى بلاطة الشاعر "حافظ بن شيراز" ، وشيد مدارس لأبناء المسلمين اليتامى، وحاول بكل ما يستطيع تقديم العون وتخفيف المعاناة عن الأرامل والفقراء من النساء . ومن سلاطين هذه المملكة الأقوياء "فيروز شاه" (١٣٩٧ - ١٤٢٢) كان حاكما مستنيرا ومصلحا . وبلغت المملكة فى عهده أوج عظمتها وازدهارها . ولقد فرض السلام على مملكة Vijayanagar بعد أن لقنها درسا قاسيا على الرغم من قسوة جيشها وضخامته ، فقد دبر أحد ضباطه خطة ناجحة بأن عهد إلى بعض جنده بالتنكر فى زى مشعوذين ، واستطاعوا اقتحام معسكر العدو، وألقوا الذعر بين الجنود الهنود، وفى خلال ذلك تمكن الجند المسلمون من مهاجمة العدو، وهزموهم شر هزيمة .

وانتهت الحرب بين الفريقين بعقد معاهدة سلام تعهد فيها راجا Vijayana-gar بتقديم فيلة ومبالغ من المال للسلطان فيروز شاه . وقد له إحدى بناته ليتزوجها . وتزوج السلطان من ابنه الراجا . غير أن هذا الزواج لم يؤد إلى إرساء سلام بين المملكتين المتنافرتين .

ولقد شيد السلطان فيروز المنشآت الضخمة فى مملكته، وكان يحب ويشجع العلوم والآداب والموسيقى، واهتم بالدراسات الدينية فى مختلف الأديان، كان قصره يضم نساء أوربيات وهنديا، واستطاع السلطان التفاهم معهن بلغاتهن . وانتهت حياة هذا السلطان بمؤامرة دبرها أخوه أحمد الذى خلفه فى الحكم ونقل

هذا السلطان عاصمة بلاده إلى بدار Bidar، وتقع في نقطة هامة ترتفع عن سطح البحر قدر ٥٠٠.٢ قدم، وإلى غربها سهل منبسط يضم أشجار المانجو والتمر هندی.

وآخر من حكم مملكة البهماني، " محمد شاه الثالث " (١٤٦٣ - ١٤٨٢) ويرجع ما حققه من نجاح في سياسته إلى وزيره "محمود جوان"، وينتمي إلى أسرة فارسية عريقة، وعرف عنه المهارة القتالية والحنكة الإدارية والعدالة والمقدرة السياسية والمالية، وكان يعيش حياة زهد وتكشف، وأسس مدرسة في بدار، ماثا ضخمة مرتفع، وغرف المحاضرات مضيئة وتشتمل مكتبة المدرسة على ثلاثة آلاف مجلد، وبالمدرسة غرف للأساتذة والطلاب ومسجد، والواجهة نقش عليها آيات قرآنية.

على أن السلطان قلب ظهر المجن على وزيره، فقد اتهمه بمحاولة خلع السلطان، وتنصيب نفسه حاكما مستقلا على المملكة. ولقد سعى حكام الولايات وكبار الموظفين إلى بث الوقيعة بينه وبين السلطان لأنه تشدد في مراقبتهم، ولم يتهاون مع واحد منهم، فضلا عن أنه فارسي الأصل، وما زالوا بالسلطان حتى خشى من تأمر وزيره عليه، ووجه إليه السلطان تهمة الخيانة العظمى، ودافع الوزير عن نفسه، وأنكر التهمة، وحاول إثبات براءته، فحذر الوزير "جوان" السلطان من مغبة وعاقبة قتله ظلما، لأن ذلك سيؤدي إلى فقدانه لشخصيته وضياع ملكه. وقتل الوزير المصلح وهو في الثانية والسبعين من العمر، وبعد أن خدم المملكة بإخلاص خمسة وثلاثين عاما. وبعد فترة من الوقت اكتشف السلطان أن وزيره قتل ظلما، فشعر بالذنب، وظل يتناول الشراب من الخمر، وهو يردد أن محمود جوان سيقطعه إربا وما زال يشرب حتى توفي.

أخذت المملكة في الضعف والتدهور بعد وفاة هذا السلطان وعمت الفوضى البلاد، وساد القتال في الشوارع بين المواطنين الهنود والوافدين الأجانب، وحكم البلاد ملوك كانوا ألعوبة في أيدي القواد الأتراك. وظل الأمر كذلك حتى استعان

آخر ملوكها بسُلطان المغول فى دهلى - بابر - لإنقاذه من الفوضى السائدة فى البلاد. ودخلت المملكة فى حوذة دهلى، وتوفى آخر ملوك البهمانى سنة ١٥٢٦.

نشأ مجتمع جديد فى المملكة البهمانى من تزاوج العناصر الأجنبية بالعناصر الوطنية. أما الفلاح فى القرية فلم يطرأ جديد على حياته إلا فى عهد الوزير جوان، فقد حقق الزراع دخلا كبيرا نتيجة لسياسته الاقتصادية واستتباب الأمن والنظام فى البلاد، وعم العمران حتى تشابكت القرى، ولقد وصف لنا رحالة روسى " أثناسيوس " Kikitin (١٤٧٠ - ١٤٧٤) محمود الثانى بأنه فى العشرين من عمره، وعنده جيش ضخيم يتكون من كشاة مسلحين وفيلة مهيأة لركابها، وفى كل قرية مسجد يتعلم فيه الأطفال القرآن الكريم، ويديرها القاضى بمقتضى الشريعة الإسلامية، وفى المدن مدارس لتعليم اللغتين العربية والفارسية، ولها أوقاف ينفق من ريعها على إدارتها، وأضف من شأن ملوك البهمانى، إدمانهم للشراب، الأمر الذى تسبب فى ضعف الإدارة الحكومية والتدهور الاقتصادى والإدارى وكثرة الحروب الأهلية.

وملوك البهمانى، اهتموا عموما بالعمارة، ويتجلى ذلك فى القلاع التى شيدها فى طوال البلاد وعرضها، وأدى اختراع البارود إلى تقوية القلاع وأحيطت بأسوار ضخمة، أشهرها قلعة "دولت آباد".

قلنا إن مملكة البهمانى انقسمت إلى أربع ولايات، ولما ضعفت هذه المملكة تطلع الولاية إلى الاستقلال بولاياتهم، ومن أقوى هؤلاء الولاية " يوسف عادل شاه" حاكم بيجابور، أعلن استقلاله سنة ١٤٨٩، وكان عبدا اشتراه الوزير جوان، وهو الابن الأصغر للسُلطان التركى مراد الثانى، حيث هرب فى وقت استخلاف أخيه وهرب من القتل، وتعرف جوان على مقدرته وأسند إليه وظيفة رئيسية. وأثبت يوسف عادل شاه أنه حاكم قدير ومستنير، استفاد من أستاذه جوان، وترك المذهب السنى، واعتنق المذهب الشيعى، وتزوج امرأة من Martha وأخلص لها، واستعمل لغة المارتا فى المخاطبة، وكان ذلك من أسباب تقرب الجنود له، وأسند

المناصب الرسمية للهنود، وبصفة فرشته بالحكمة والفصاحة والنجابة وكان موسيقيا بارعا وأديبا فذا، وحرص على بث الفضيلة بين وزرائه ورجال دولته وضرب المثل بنفسه، وحثهم على التعامل مع الأهلين بالعدالة والحكمة، وجلب إلى بلاطه رجالا أكفاء من فارس وتركستان والروم، وفنانين من مختلف البقاع والأصقاع، وكفل لهم الحياة الكريمة الهنيئة، ووضع خلفائه المبادئ والأسس التي ينبغي للحاكم أن يتحلى بها.

ومن أبرز حكام بيجابور إبراهيم الثاني (١٥٨٠ - ١٦٢٦) وأصل سياسة أسلافه الحكيمة، وشجع التجارة مع القوى الخارجية، وجلب إلى بلاطه الفنانين والأدباء، وتعاطف مع المسيحيين، ومحنتهم أراض لإقامة كنائس، وأوجد مدينة Naurasbur كمركز أدبي وديني، وآخر حكام بيجابور العظام، السلطان محمد عادل شاه (١٦٢٦ - ١٦٥٦) خضع للمغول مضطرا سنة ١٦٣٦ م.

ومدينة بيجابور تقع على ألقى قدم فوق مستوى البحر، وبها أسوار دفاعية هائلة وعليها أبراج نصبت مدافع، وتمثل هذه المدفعية مهارة وسائل الدفاع، واشتهرت هذه المدينة بمدارسها وأساتذتها، ومن أشهر أساتذتها، محمد قاسم فرشته، قدم من إستراباد، واستقر في أحمد ناجار، ولجأ إلى بلاط إبراهيم عادل شاه الثاني في سنة ١٥٨٩. وتاريخه عن الإسلام في الهند فريد من نوعه، كتاب فيه الأصالة والنقاوة، بعيد كل البعد عن التأثير ببلاط السلطان، والكتاب مرجعنا الرئيسي عن تاريخ الإسلام في الهند في الفترة ما قبل سنة ١٦١٢ وترجم إلى الإنجليزية بواسطة الكولنل J. Briggs سنة ١٨٢٩.

\*\*\*

## المراجع

- د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: بلاد الهند فى العصر الإسلامى منذ فجر الإسلام حتى الغزو التيمورى، دار الفكر العربى ١٩٩٦.
- د. عبد الله محمد جمال الدين: التاريخ والحضارة الإسلامية فى باكستان أو السند والبنجاب إلى آخر فترة الحكم العربى، دار الصحوة، القاهرة ١٩٩١.
- د. عبد الله مبشر الطرازى: موسوعة التاريخ الإسلامية والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب (باكستان فى عهد العرب)، عالم المعرفة، جدة، ١٩٨٣.